الفصل الثاني
ياقوت الحموي حياته وشعره .

توطئة :

حياة الفرد هي المؤثر الحقيقي في إبداعاته وأفكاره ومعتقداته ومذاهبه ، وما يمر على الإنسان من حروب وأحداث سياسية ، وما يلاقيه من أحداث في حياته الشخصية وأحداث عامة في مجتمعه الذي نشأ فيه ، وما يقوم به من أسفار وترحال يؤثر قطعا على كتاباته .

فالشجرة لا تتغذى إلا على التربة التي وضعت فيها ، وكلما كانت تلك التربة خصبة مليئة بالغذاء نمت الشجرة وترعرعت وإلا ماتت ومحيت من الوجود ، كذا المبدع كلما نشأ في بيئة تحب العلم والعلماء وتحتوي النابغ حق احتواء ، ظهر نبوغه في عصره بل وامتد على مر العصور وشهد له الجمهور ، فمن منا يستطيع فصل الفرد عن جذوره وموضع رأسه ومكان نشأته ، خاصة إذا كان هذا الفرد من المبدعين بل ومن الأدباء كصاحبنا ياقوت الحموي .

لذا فسرد حياته منذ مولده وأسره ، إلى نشأته في مغبة الرق وذل العبودية إلى وفاته لا شك سيرسم لنا صورة واضحة جلية عن فكر ياقوت ، وسيوضح لنا السبب في تأليفه بعض المؤلفات ، فكثرة أسفاره في البلاد بتجارة مولاه وحتى بعد موته حيث سافر ببضائعه ، وكذا بيعه للكتب التي نسخها ؛ كل هذا ساعده على أن يؤلف موسوعة كانت وستظل من أروع الموسوعات في البلدان وهو كتابه " معجم البلدان " ، كما ساعده كثرة

اطلاعه على الكتب ، وامتهانه لمهنة الوراقة والنسخ بالأجر ؛ تلك المهنة التي كانت لها جليل الأثر وعظيم النفع على صاحبنا فمنها نهل العلم .

فنشأة ياقوت الموسوعية اكتسبها من العصر الذي عاش فيه ، فسبق وقلنا إن عصره كان عصر الموسوعات والموسوعيين ، وكان العالم الموسوعي يصطفيه الخليفة لنفسه وكان يتولى ديوان الإنشاء ولابد للمسئول عن هذا الديوان أن يكون ملما بكل العلوم والمعارف أي لابد وأن يكون عالما موسوعيا ، وصاحبنا كان عالما بالجغرافيا والتاريخ والأدب واللغة والنحو والبلاغة وعلوم الشريعة ، لذا فهو بين صفوف الموسوعيين بلا شك .

*****

في التراث العربي أكثر من ياقوت :

ذكر ابن تغري بردي أنه قد تسمى بهذا الاسم كثيرا من الأعيان وغير الأعيان يقول: " قلت : وتسمى بهذا الاسم جماعة كثيرة لهم ذكر، فمنهم من يذكر هنا ومنهم من لا يذكر على حسب الاتفاق ، وهم ياقوت هذا المذكور. وياقوت بن عبد الله الصقلبي أبو الحسن المعروف بالجمالي مولى الخليفة المسترشد بالله الفضل العباسي ، ووفاته سنة ثلاث وستين وخمسمائة. وياقوت بن عبد الله أبو سعيد مولى أبي عبد الله عيسى بن هبة الله بن النقاش، ووفاته سنة أربع وسبعين وخمسمائة . وياقوت بن عبد الله الموصلي الكاتب أمين الدين المعروف بالملكي نسبته إلى أستاذه السلطان ملكشاه السلجوقي ، انتشر خطه في الآفاق ، توفي بالموصل سنة ثماني عشرة وستمائة . وياقوت ابن عبد الله الحموي الرومي شهاب الدين أبو الدر. كان من خدام بعض التجار ببغداد يعرف بعسكر الحموي ، وهو صاحب التصانيف ؛ توفي سنة ست وعشرين وستمائة . وياقوت بن عبد الله

مهذب الدين الرومي مولى أبي منصور الجيلي التاجر، كان شاعرا ماهرا، وهو صاحب القصيدة التي أولها:

(البسيط)

إن غاض دمعك والأحباب قد بانوا فكل ما تدعي زور وبهتان

توفي سنة اثنتين وعشرين وستمائة . وياقوت بن عبد الله المستعصمي الرومي جمال الدين أبو المجد صاحب الخط البديع ، مولى الخليفة المستعصم بالله العباسي ، توفي سنة ثمان وتسعين وستمائة . وياقوت الشيخي افتخار الدين الحبشي مقدم المماليك في دولة الأشراف شعبان بن حسين ، توفي سنة سبع وسبعين وسبعمائة . وياقوت بن عبد الله الحبشي المعزي المسعودي المحدث الفاضل ، توفي سنة أربع وخمسين وستمائة . وياقوت بن عبد الله الأرغون شاوي الحبشي مقدم المماليك للأشراف برسباي ، توفي سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة . قلت : وهؤلاء الأعيان . وأما غير الأعيان فكثير. وقد استطردنا ذكرهم هنا جملة لئلا يلتبس أحد منهم على من ينظر في ترجمة أحدهم في محله "[1].

وها هي جملة من أخبار أشهر من تسمى بهذا الاسم .

(١) : ياقوت الرومي الشاعر :[2]

ياقوت بن عبد الله الرومي مولى التاجر أبي منصور الجبلي مهذب الدين أبو الدر أديب شاعر نشأ ببغداد ، وحفظ القرآن ، وعني بالتحصيل في المدرسة النظامية فقرأ فيها

(١) " النجوم الزاهرة " : ٥ / ٢٨٣ – ٢٨٥ ، وهو يقصد ياقوت الرومي أبو الدر الكاتب .

(٢) انظر ترجمته في : " سير أعلام النبلاء " للذهبي : ١٣ / ١٩٦ ، " وفيات الأعيان" لابن خلكان : ٢ /٢٧٥ ، "مرآة الجنان " لليافعي : ٤/ ٤٩- ٥٠ ، " معجم الأدباء " ياقوت الحموي : ٩ / ٣١١، ٣١٢ ، " شذرات الذهب " لابن العماد : ٥ / ١٠٥- ١٠٦ " هدية العارفين " : ٢ / ٥١٣ ،إسماعيل باشا البغدادي طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية ١٩٥٥م وأعادت طبعه بالأوفست دار إحياء التراث – بيروت – لبنان ، "الأعلام " للزركلي : ٨ / ١٣١ .

العلوم العربية والأدبية وتأدب ، وتقدم في النظم ، وانتشر نظمه بالعراق والشام وتوفي ببغداد في جمادى الأول سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م ، ومن آثاره ديوان شعر صغير.

وسمى نفسه عبد الرحمن ويعرف بالرومي ، وممن سمع منه أبو المحاسن عمر بن الخضر بن عبد الله بن علي القرشي الزبيري الدمشقي القاضي الحافظ نزيل بغداد .

(٢) : ياقوت الرومي التاجر[١] :

هو أبو الدر ياقوت الرومي التاجر عتيق عبد الله بن أحمد البخاري أحد التجار المشهورين ، حدث بدمشق ومصر وبغداد عن الصريفيني بمجالس المخلص وغير ذلك ، توفي بدمشق في شعبان سنة ٥٤٣ هـ .

(٣) : ياقوت الكاتب الموصلي[٢] :

ياقوت بن عبد الله الموصلي الكاتب المجيد الملقب أمين الدين المعروف بالملكي أمين الدين ، خطاط ، توفي بالموصل سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢١م ، وسمي بالملكي نسبة إلى السلطان ملك شاه، والناس متفقون على الثناء عليه ، وكان نعم الرجل .

أخذ النحو عن ابن الدهان وكان ملازما له ، قرأ ديوان المتنبي والمقامات ، وكتب بخطه الكثير ، وانتشر خطه في الآفاق ، وكان خطه في نهاية الحسن ولم يؤدي أحد طريقة ابن البواب مثله ، مع فضل غزير ونباهة، وكان مغرى بنقل صحاح الجوهري ، وكتب منها نسخا كثيرة ، كل نسخة في مجلد ، وكتب عليه خلق كثير وانتفعوا به ، وكانت له سمعة كثيرة في زمنه ، وقد أسن وتغير خطه كثيرا .

---

(١) " شذرات الذهب " : ٤ / ١٣٦ ، " الأنساب " السمعاني : ٦ / ١٨٨ ، " النجوم الزاهرة " : ٥ / ٢٨٣ .

(٢) انظر ترجمته في " هدية العارفين " للبغدادي : ٢ / ٥١٢ ، و" شذرات الذهب " لابن العماد : ٥ / ٨٣ – ٨٤ ، "معجم الأدباء":١٩ / ٣١٢،"النجوم الزاهرة"ابن تغري بردي: ٥ / ٢٨٣ ، " الأعلام للزركلي":١٣٠/٨– ١٣١ .

obeikandl.com

(٤) : ياقوت الحبشي :(١)

هو زاهد عاش في الإسكندرية ، وسمي ياقوت الحبشي الشاذلي ، صاحب أبي العباس المرسي، وكان يقول : أنا أعلم الخلق بلا إله إلا الله ، توفي بالإسكندرية عن ثمانين سنة ، وكانت وفاته سنة ٧٣٢ هـ .

(٥) : ياقوت المستعصمي :(٢)

ياقوت بن عبد الله المستعصمي البغدادي (جمال الدين) ، خطاط عارف بعلوم العربية ، ناثر ، ناظم ، من مماليك الخليفة المستعصم ، من آثاره : رسالة في الخط ، أسرار الحكماء ، رسالة في الآداب والحكم والأخبار ، ونبذة من أقوال الفضلاء .

كان قد اشتراه الخليفة المستعصم صغيرا وربي بدار الخلافة ، واعتنى بتعليمه الخط صفي الدين عبد المؤمن ، ثم كتب على ابن حبيب ، وكتب عليه أبناء الأكابر ببغداد وحظي عند علاء الدين بن الجويني صاحب الديوان ، وكتب عليه أولاده وأولاد أخيه .

من شعر ياقوت المستعصمي :

(المتقارب)

ت لـدهري إذ جـاد لـي	بخط يفـوق بأجزائـه
ي فيه مـن نقطـة	تكون على الطاء من خائه

والمعنى هنا أن تبدل النقطة التي على الخاء في كلمة (خط) وتوضع على الطاء فتصير حظ ، وهذا مما يدل على امتهانه الخط وإجادته له ، لدرجة أنه تمنى أن يكون حظه مثل خطه .

---

(١) انظر ترجمته في : شذرات الذهب لابن العماد : ٦ / ١٠٣ .

(٢) ترجمته في " فوات الوفيات " لابن شاكر الكتبي : ٤ / ٢٦٣ ، تحقيق : إحسان عباس ، الناشر : دار صادر – بيروت الطبعة الأولى ، " النجوم الزاهرة " لابن تغري بردي : ٨ / ١٨٧ ، و" شذرات الذهب " لابن العماد : ٥ / ٤٤٣ ، " الأعلام " الزركلي : ٨ / ١٣١ – ١٣٢ .

وكانت وفاته في شهور سنة ثمان وتسعين وستمائة - رحمه الله تعالى.

هؤلاء هم الذين اشتهروا باسم ياقوت ، والسبب في إيرادهم هنا هو الخوف من الوقوع في اللبس بين ياقوت الحموي صاحب معجم الأدباء وبين أي منهم ، فمنهم من يشترك معه في بعض الأشياء ، فأحدهم قد اشتهر بحسن الخط وجودة النسخ كصاحب المعجم ، ومنهم من كان صاحب تآليف ، ومنهم من اشترك معه في قول الشعر.

*****

ياقوت الحموي[1] :

اسمه ونسبه : ياقوت الحموي هو أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الجنس والمولد الحموي المولى البغدادي الدار ، وقد اشتبهت كنيته

(١) ترجمته في " قلائد الجمان " لابن الشعار : ٩ / ٣٣٩ – ٣٤٩ ، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية فرنكفورت – ألمانيا ١٩٩٠م ، " إنباه الرواة على أنباه النحاة " للقفطي : ٤ ٧٤ – ٩٢ ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٧٣م ، التكملة لوفيات النقلة " لعبد العظيم المنذري : ٣ / ٢٤٩ ترجمة رقم : ٢٢٥٦ ، تحقيق د . بشار عواد معروف ، بيروت – لبنان ١٩٨١م ، " تاريخ إربل " لأبي البركات الإربلي ٣١٩ – ٣٢٤ ، ترجمة رقم : ٢٢٣ ، تحقيق د . سامي صقر ، بغداد ١٩٨٠م ، " وفيات الأعيان " لابن خلكان : ٦ / ١٢٧ – ١٣٩ ، تحقيق د : إحسان عباس ، طبعة دار صادر بيروت – لبنان ، " سير أعلام النبلاء " للذهبي : ٢٢ / ٣١٢ – ٣١٣ ، تحقيق د . بشار عواد معروف ، د : محيي هلال سرحان ، مؤسسة الرسالة بيروت – لبنان ١٩٨٥م ، " العبر في خبر من غبر " للإمام الذهبي ٥ / ١٠٦ – ١٠٧ ، تحقيق د : صلاح الدين المنجد وآخرين . الكويت ١٩٦٠م - ١٩٦٦م ، " تاريخ الإسلام " للذهبي : ٤٥ / ٢٦٦ – ٢٧٠ ، ترجمة رقم : ٣٨٠ ، تحقيق د : عمر عبد السلام تدمري ، الناشر دار الكتاب العربي ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م ، و(الطبقة الثالثة والستون ٦٢١هـ / ٦٣٠هـ) ترجمة رقم ٣٨٠ (من ص ٢٤٤ إلى ص ٢٤٨) تحقيق د . بشار عواد معروف ورفيقيه ، بيروت – بنان ١٩٨٨م ، " المستفاد من ذيل تاريخ بغداد " لابن النجار البغدادي انتقاه كاتبه أحمد بن أيبك بن عبد الله الحسيني : ٢٥٣ – ٢٥٤ ، ترجمة رقم :١٩٦ ، تحقيق : قيصر أبي الفرج و الناشر : دار الكتاب العربي – بيروت لبنان د . ت ، " مرآة الجنان " لليافعي : ٤ / ٥٩ – ٦٣، مؤسسة الأعلمي بيروت – لبنان ، " الفلاكة والمفلوكون " للدلجي : ٩٢-٩٣ ، نشر : الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٣م ، " لسان الميزان " لابن حجر العسقلاني : ٦ / ٢٣٩ ، تحقيق : دائرة المعارف النظامية – الهند ، الناشر : مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت – لبنان ، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م ، " النجوم الزاهرة في أخبار مصر وملوك القاهرة " لابن تغري بردي : ٥ / ٢٨٣ ، " شذرات الذهب في أخبار من ذهب " لابن العماد الحنبلي : ٥ / ١٢١- ١٢٢ ، منشورات دار الآفاق بيروت لبنان د . ت ، " كشف الظنون " لحاجي خليفة : ٦ / ٥١٣ ، طبعة : دار الفكر بيروت – لبنان ، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م ، " هدية العارفين " إسماعيل باشا البغدادي : ٢ / ٥١٣ " ، معجم المؤلفين " لعمر رضا كحالة : ١٣ / ١٧٨ – ١٨٠ ، دار إحياء التراث بيروت لبنان، " الأعلام " لخير الدين الزركلي : ٨ / ١٣١ ، طبعة : دار العلم للملايين ، بيروت – لبنان ١٩٧٩م .

على ابن العماد في " الشذرات ، فقال : " وفيها أبو الدر ياقوت بن عبد الله الرومي الجنس الحموي المولى البغدادي الدار الملقب شهاب الدين "(١) وقد اتفق معه ابن تغري بردي في هذه الكنية (٢) .

حياته :

أسر من بلاده صغيرا مع من أسر فهو من أصل رومي ، واشتراه " عسكر بن أبي نصر إبراهيم الحموي " كان يعيش ببغداد ، وكان عمر ياقوت وقت أسره خمس أو ست سنوات(٣) ، ومما يثبت ذلك قول ياقوت في ترجمته للمبارك بن المبارك الكرمي : "أدركت زمانه ولقيت ببغداد أوانه ، إلا أنني لم أره لصغر السن حينئذ والاشتغال في ذلك الزمان بغير هذا الشأن "(٤) .

وقد مات المبارك هذا في سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ببغداد في الأخلاطية بالجانب الغربي(٥) ، وفي هذا دليل على أن ياقوتا قد ذهب إلى بغداد وهو صغير السن نتيجة للأسر ، وتفيدنا تلك العبارة بشيء آخر وهو أن ياقوت كان يشتغل بغير الأدب يقصد بالطبع اشتغاله بالتجارة .

أما عن مكان مولده فقد ولد ببلاد الروم ، ويدل على هذا ما ذكره ياقوت حيث قام بعمل ترجمة لنفسه ووضعها في معجم الأدباء ولكنها ضاعت مع ما ضاع ، ونقله عنه ابن

---

(١) " شذرات الذهب " : ٥ / ١٢١ ، وقد أشار دكتور ديب إلى هذا الأمر في هامش بحثه قائلا : " لقد أخطأ ابن العماد الحنبلي عندما لقبه أبا الدر (الدري) في كتابه شذرات الذهب . وأبو الدر هذا ياقوت آخر " لكنه أغفل اتفاق ابن تغري بردي معه في هذا اللقب ، وأشار أيضا إبراهيم الإبياري إلى هذا الأمر في سلسلة تراث الإنسانية ، والتي قامت الهيئة المصرية العامة للكتاب بتشرها تحت عنوان " معجم الأدباء لياقوت الرومي " : ٣ ، ١٩٩٥م ، يقول الإبياري : " ياقوت هو شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله . ولقد وهم ابن العماد الحنبلي صاحب الشذرات حين لقبه أبا الدر (الدري) " .

(٢) " النجوم الزاهرة " : ٥ / ٢٨٣ .

(٣) هذا ما ذكره ابن الشعار في ترجمته لياقوت حيث يقول:"وكان عمر الطفل حين حمل لبغداد خمس سنين أو ست "

(٤) " معجم الأدباء " : ٥ / ٢٢١٦ ، ترجمة رقم : ٩٣١ .

(٥) " معجم الأدباء " : ٥ / ٢٢٦١ – ٢٢٦٢ .

خلكان في وفيات الأعيان يقول : " وكانت ولادة ياقوت المذكور ببلاد الروم في سنة أربع أو خمس وسبعين وخمسمائة ببلاد الروم هكذا قاله – يقصد ياقوت – "(١) ، وقد وقع إبراهيم الإبياري في خطإ فادح حيث لم يقرأ كلام ابن خلكان جيدا فاتهمه بأنه ناقض كلامه ، يقول الإبياري بعد أن نقل العبارة السابقة من وفيات الأعيان : " وابن خلكان الذي يذكر هذا عن ياقوت يذكر غيره غير عازيه إلى منقول عنه فيقول في صدر ترجمته لياقوت : الرومي الجنس ، الحموي المولد ، البغدادي الدار. فتراه هنا قد صرح بمكان مولده وجعله حماة . ونكاد نشك في أن هذه وقعت لابن خلكان – إن صحت أنها له – عن لبس جر إليه مولد المولى ، وهو عسكر ابن إبي نصر إبراهيم "(٢) ، والحقيقة أن من أخطأ هو الإبياري وليس ابن خلكان فكلام ابن خلكان كالآتي : " أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الجنس والمولد ، الحموي المولى – وليس المولد – ، البغدادي الدار "(٣) ، كما وقع في هذا الخطأ أيضا دكتور ديب حيث نقل العبارة وفيها نفس الخطأ ، بل وناقد نفسه حيث يقول : " اللقب الثاني الرومي لأنه ولد في بلاد الروم "(٤) ونسي أنه نقل تلك العبارة على لسان ابن خلكان التي توحي أن مولده بحماة وليس بالروم ، والحقيقة أن السبب في وقوع كليهما في هذا الخطأ هو اعتمادهما على طبعة المطبعة الميمنية بمصر ، ومع ذلك فلا نلتمس لهما العذر فالدكتور إحسان عباس قد قام بإعادة تحقيق هذا الكتاب قبل أن يقوم الإبياري بنشر كتابه عن ياقوت ، وكذا قبل أن يقوم دكتور ديب بعمل دراسته عن الحموي هذا وقد اعتمد دكتور ديب في مصادره بجانب طبعة المطبعة التيمورية على طبعة إحسان عباس ومع هذا فلم ينتبه لهذا الخطأ .

---

(١) " وفيات الأعيان " : ٦ / ١٢٧ .
(٢) " معجم الأدباء لياقوت الحموي " إبراهيم الإبياري : ٥ .
(٣) " وفيات الأعيان " : ٦ / ١٢٧ .
(٤) " ياقوت الحموي أديبا وناقدا " دكتور : ديب : ٣٤ .

وكان عسكر الحموي مالك ياقوت لا يعرف القراءة والكتابة ، فجعل ياقوتا في الكتاب لينتفع به في تجارته وليساعده في حساباته التجارية ، فعسكر لا يحسن شيئا خلا التجارة ، وبالفعل سافر ياقوت بتجارة مولاه إلى شتى أرجاء الأرض ، فسافر إلى مصر وعمان وبلاد الشام وبلاد المغرب ، وغيرها من البلاد ، وقد ساعده ذلك على أن يخرج كتابه "معجم البلدان " بتلك الصورة الرائعة التي خرج عليها حتى صار موسوعة جغرافية أدبية لا غنى عنها ، ومما يدل على أن صاحبنا قد عاش ببغداد قوله في ترجمة على ابن الحسن المعروف بشميم الحلي :

" قال مؤلف الكتاب : وكنت قد وردت إلى آمد في شهور سنة أربع وأربعين وخمسمائة .....فسلمت عليه وجلست بين يديه ، فأقبل علي وقال : من أين أنت ؟ قلت : من بغداد فهش بي وأقبل يسألني عنها وأخبره ... "(١).

ولما بلغ ياقوت إحدى وعشرين سنة حدثت بينه وبين سيده جفوة أوجبت عتقه وكانت تلك الجفوة فاتحة خير على صاحبنا ، حيث لم يجد مصدر رزق يعيش منه غير النسخ بالأجرة ، وابتعد فترة عن التجارة لم تكن بالطويلة ، فعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، فلولا تلك الجفوة لفقدنا نهرا زاخرا بالعلم ، لفقدنا ياقوتة من ياقوتيت الترجمة ولفقد ياقوت ما يخلد اسمه ، فلولا مؤلفاته لما عرفناه ولانتهى ذكره من الدنيا بمجرد أن توارى جسده بالتراب ، كما نسي الكثير من الناس ، لأنهم لم يكتبوا شيئا يخلدون به اسمهم ، فقد تفنى الأجساد وتقف الزفرات لكن تبقى الكلمات وتدوم المؤلفات ؛ فباشتغال ياقوت بالنسخ حصل له به فوائد عديدة ، وفتحت له مدارك كثيرة ، لكن سرعان ما رضي عنه مولاه مرة أخرى فأعطاه شيئا من أمواله وبضائعه وسفره بها إلى كيش ليتاجر له بها

(١) " معجم الأدباء " : ٤ / ١٦٨٩ ، ترجمة رقم : ٧٤٢ .

وعند عودته إلى حماة كان عسكر قد مات وقضي نحبه ، فأخذ ياقوت شيئا مما كان معه لنفسه وترك ما تبقى لأولاد مولاه وزوجته حتى رضوا بما قسم الله لهم ، وهذا الموقف يدل على حسن أخلاق الحموي وخوفه من الله تعالى ، وجعل ما أخذه من مال سيده رأس مال له ليتاجر به ، وغير من نشاطه التجاري فبعد أن كان يتاجر في البضائع صار يتاجر في الكتب .

****

- مولده :

شكك بعض من ترجم لياقوت في تاريخ مولده فمنهم من قال إن مولده في سنة أربع وسبعين وخمسمائة ، ومنهم من قال إن مولده في سنة خمس وسبعين وخمسمائة ومنهم من ذكر التاريخين معا .

قال المنذري " سمعته يقول مولدي سنة أربع أو خمس وسبعين وخمسمائة "(١)

وتبعه ابن خلكان في هذا الشك ، يقول : " وكانت ولادة ياقوت المذكور في سنة أربع أو خمس وسبعين وخمسمائة ببلاد الروم "(٢) .

وممن جزم أن سنة مولد ياقوت أربع وسبعين وخمسمائة **ابن العماد** (٣) ، وقد جزم حاجي خليفة بأن سنة مولده خمس وسبعين وخمسمائة(٤) .

ثم يأتي دكتور إحسان عباس ويقف وقوفا مؤقتا – على حد تعبيره – في وجه هذا التاريخ التقديري معتمدا في ذلك على ثلاثة أمور ، يرى الباحث أنها واهية ، حيث يقول :

" ويقف في هذا التاريخ التقديري لميلاده ولو على شكل مؤقت ثلاثة أمور :

(١) " المستفاد من ذيل تاريخ بغداد " : ١٩ / ٢٥٣ – ٢٥٤ .
(٢) " وفيات الأعيان " : ٢ / ٢٧٢ .
(٣) " شذرات الذهب " : ٥ / ١٢١ .
(٤) " كشف الظنون " : ٦ / ٥١٣ .

الأول : " قول على لسان ياقوت نفسه مفاده أنه لقي الخضر بن ثروان الضرير بمرو وسرخس ونيسابور في سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، وجاء هذا التاريخ في معجم الأدباء ومعجم البلدان على السواء ، وهذا قبل

مولد ياقوت بثلاثين عاما إذا اعتمدنا التاريخ الذي ذكرناه "(١) .

وردا على هذا السبب الأول الذي لا صحة له على الإطلاق ، حيث يقول ياقوت في ترجمة التومائي الموجودة في معجم البلدان(٢) : " قال أبو سعد : ينسب إليها صاحبنا ورفيقنا أبو العباس الخضر بن ثروان بن أحمد أبي عبد الله التغلبي التومائي ويقال له الفارقي والجزري لأنه ولد بالجزيرة ونشأ بميا فارقين ..... ثم لقيته بنيسابور ومرو وسرخس غير مرة في سنة ٥٤٤هـ وسألته عن مولده فقال : في سنة ٥٠٥هـ بجزيرة ابن عمر وكتبت عنه شيئا من أشعاره ومن أشعار غيره ....." .

ومما يثبت صحة ما ذكرته طبعة دار الفكر ، وطبعة دار صادر ، ما قاله السمعاني في كتابه الأنساب ، حيث يقول :

" لقيته أولا ببغداد في المسجد المعلق ، وسمعنا غريب الحديث لأبي عبيد عن الشيخ أبي المنصور الجواليقي والإمام أبي الحسن بن الآبنوسي ، ثم لقيته بنيسابور ومرو غير مرة وسرخس وبلخ وكتبت عنه من شعره وشعر غيره شيئا كثيرا "(٣) .

وبعد : فهذا السبب الأول لا صحة له مطلقا .

---

(١) " معجم الأدباء " : ٧ / ٢٨٨٣ .
(٢) " معجم البلدان " : ٢ / ٥٩-٦٠ ط : دار الفكر ، ٢ / ٥٩ – ٦٠ ط : دار صادر .
(٣) " الأنساب " للسمعاني : ٣ / ١٠٥ ، تحقيق : الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي حيث قام بتحقيق السبعة أجزاء الأولى فقط ، وحقق الجزء الثامن محمد عوامة ، والجزء التاسع اشترك معه الأستاذ رياض مراد ، وقام بتحقيق الجزء العاشر الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو ، والجزء الحادي عشر أشرف عليه الأستاذ رياض مراد والأستاذ مطيع حافظ ، والجزء الثاني عشر والأخير قام بتحقيقه الأستاذ أكرم البوشي ، مكتبة ابن تيمية / القاهرة ، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

أما السبب الثاني : " قوله في ترجمة التومائي نفسه : وبلغتنا وفاته ببخارى سنة ثمانين وخمسمائة ، وهذا يعني أن التومائي قد توفي وعمر ياقوت خمس سنوات أو أكثر قليلا ، وأن ياقوتا كان قادرا على التجوال ، وأن تجواله حمله إلى بخارى ، وعلى هذا لابد لنا أن نقدر وجود خطأ في التاريخين "(١).

ولا أعلم من أين أتى دكتور إحسان عباس بهذه اللابدية ، فالعبارة واضحة حيث يقول ياقوت : " وبلغتنا " وليس في هذا اللفظ دلالة على ضرورة أن يكون التبليغ سنة وفاة الرجل – التومائي – بل من الممكن أن يكون تاريخ الوفاة قد بلغ ياقوتا بعد وفاة التومائي بسنوات ، وهذا ما حدث بالفعل ، والأمر لا يحتاج إلى دراسة أو إلى بحث كما فعل الدكتور إحسان عباس حيث يقول :

" وبعد البحث تبين لي أن هذا القول الذي جرت نسبته إلى ياقوت عن أبي سعد السمعاني ، وقد سقط صدر الاقتباس : " قال أبو سعد " ومن الغريب أن يسقط في المعجمين كليهما "(٢) .

هذا وقد أقر دكتور إحسان عباس بضرورة وجود سقط في المعجمين كليهما ، وحقيقة فمنهج ياقوت في الاقتباس متنوع فنجده يذكر اسم الكتاب واسم مؤلفه ، وقد يذكر أحدهما فقط ، وقد لا يذكر الاثنين معا ، فهذا هو منهج ياقوت في نقله عن غيره ، وقد اعترف دكتور إحسان بهذا المنهج الذي انتهجه ياقوت في معجمه ، يقول : " وربما كان ياقوت ينقل عنه (معجم الأدباء) دون أن يسميه "(٣) ويقول في موضع آخر : " وعنه ينقل ياقوت في معجم الأدباء فيسميه أحيانا ويغفل اسمه أحيانا أخرى "(٤) ، لذا حتى

(١) " معجم الأدباء " : ٧ / ١٨٨٣ .
(٢) " معجم الأدباء " : ٧ / ٢٨٨٣ .
(٣) "شذرات من كتب مفقودة " ، إحسان عباس : ١ / ٨٣ ، طبعة : دار الغرب الإسلامي / بيروت – لبنان ١٩٨٨م .
(٤) " المصدر السابق " : ١ / ٢٣ .

لو لم نكتشف عدم وجود سقط فلا يحق لنا أن نشك في تاريخ ميلاده لمجرد تلك المقولة التي وردت في معجم البلدان ، لأن من منهجه أنه لا يذكر مكان نقله عن غيره أحيانا وهذا ما نأخذه على ياقوت ، فقد يوقع هذا المنهج القاريء في لبس كما حدث هنا مع دكتور إحسان عباس .

كما أن ياقوتا قد أثبت نقله من السمعاني كما ذكرنا آنفا .

والسبب الثالث : " أنه لقي المجفجف الشاعر بحلب سنة ٥٨٠ هـ وهذا أيضا من قبيل الخطأ السابق فإنه لم يكن في عمر يسمح له بذلك ، ولم يعرف حلب إلا سنة ٦٠٧هـ وما بعدها ولكني لم أستطع أن أعرف الناقل الأصلي لهذا الخبر "(١) .

وبتتبع ترجمة المجفجف الشاعر(٢) في كتب التراجم لمعرفة المصدر الذي نقل منه ياقوت هذه الترجمة ، تبين أنها عند ابن عساكر في كتابه " تاريخ دمشق " وورد فيها : " حدثنا أبو عبد الله محمد بن المحسن بن أحمد السلمي من لفظه وكتبه لي بخطه ، قال : المجفجف شاعر بدوي كثير الشعر نقي الألفاظ مختارها مستطرف المعاني قليل اللحن حسن الفن يمدح من العرب السادات وأهل البيوتات ، وله في صدقة بن فريد ما شئت من القصائد الناصعة والمعاني الرائعة . وصل إلى دمشق وأنشد أتابك قصيدة نونية وخلع عليه خلعة تامة وحمله على فرس عتيق ورأيته بحلب في مجلس الملك رضوان "(٣) .

إذن فقائل هذه العبارة هو أبو عبد الله السلمي وقد نقلها ياقوت دون أن يصرح بقائلها وهذا من العيوب التي نأخذها عليه .

---

(١) " معجم الأدباء " : ٧ / ٢٨٨٣ .
(٢) اسمه زائدة بن نعمة القشيري المعروف بالمجفجف الشاعر .
(٣) " تاريخ دمشق " ابن عساكر : ١٨ / ٢٩٨ – ٣٠٠ ، تحقيق محب الدين العمروي ، طبعة دار الفكر بيروت – لبنان ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

ومما يؤكد ذلك ما قاله صاحبه ابن العديم ، حيث يقول :

" أخبرنا القاضي أبو نصر محمد بن هبة الله الشيرازي - إذنا - ، قال : أخبرنا أبو القاسم علي بن الحسن الحافظ ، قال : حدثنا أبو عبد الله محمد بن المحسن بن أحمد السلمي - من لفظه - ، وكتبه لي بخطه - قال : المجفجف ، شاعر بدوي كثير الشعر، نقي الألفاظ مختارها، مستطرف المعاني، قليل اللحن ، حسن الفن يمدح من العرب السادات وأهل البيوتات ، وله في صدقة بن مزيد ما شئت من القصائد الناصعة والمعاني الرائعة وصل إلى دمشق وأنشد أتابك قصيدة نونية، وخلع عليه خلعة تامة، وحمله على فرس عتيق ورأيته بحلب بمجلس الملك رضوان "(١) .

وبعد ، فالسبب الثالث أيضا لا صحة له .

⋆ عمله ومهنته :

ذكر ياقوت أنه كان يعمل بالنسخ وتجارة الكتب ، فمن الكتب التي نسخها كتاب الأغاني للأصفهاني ، يقول : " وكتبت منه نسخة بخطي في عشر مجلدات "(٢) .

وفي ترجمته للقفطي يصرح ببيعه للكتب يقول : " مع اشتمالي على الكتب وبيعي لها وتجارتي فيها "(٣) .

وقد ظل ياقوت يعمل بتجارة الكتب حتى قرب وفاته ، يقول :

" **قال مؤلف الكتاب** : وكنت سنة سبع وستمائة قد توجهت إلى الشام وفي صحبتي كتب من كتب العلم أتجر فيها وكان في جملتها " كتاب صور الأقاليم " للبلخي نسخة رائعة مليحة الخط والتصوير "(٤) .

---

(١)"بغية الطلب من تاريخ حلب"لابن العديم: ٨ / ٣٧٣٨ – ٣٧٣٩،حققه وقدم له:د.سهيل زكار،طبعة دار الفكر، د. ت
(٢) " معجم الأدباء " : ٤ / ١٧٠٨ ، ترجمة رقم :٧٤٦ .
(٣) " معجم الأدباء " : ٥ / ٢٠٢٩ ، ترجمة : رقم ٨٥٥ .
(٤) " المصدر السابق " : ٥ / ٢١٨٤ ، ترجمة رقم : ٨٨٩ .

وذكر ابن الشعار أن ياقوتا كتب بيده في مدة سبع سنين ثلاثمائة مجلد "(١).

وفي الإنباه ما يثبت عمله بنسخ الكتب ، يقول القفطي :

" وذكر لي ياقوت الرومي الناسخ أنه نسخ منه نسخة بالأجرة في سبعة مجلدات استنسخه إياها تاج الدين بن حمدون كاتب السكة ببغداد ، واتصل بي أنها أبيعت في تركة المذكور "(٢).

وذكر القفطي نسخ ياقوت لكتاب " تهذيب اللغة للأزهري " ، يقول :

" أخبرني ياقوت واسمه ياقوت الرومي مولى عسكر الحموي قال : شاهدت بمرو نسخة من الكتاب بخط الأزهري عند بني السمعاني ، وفيها " مراد " وكتب هذا المذكور من هذه النسخة نسخة ، وأحضرها في صحبته من خراسان - رحمه الله ورضي الله عنه - "(٣).

إذن فالثابت والواضح أن الحموي لم يعمل طيلة عمره في غير هاتين المهنتين : مهنة النسخ ، ومهنة التجارة ولكنه تحول من تجارة البضائع التي كان يبيعها أثناء عمله مع مولاه عسكر إلى تجارة وبيع الكتب وذلك بعد وفاة عسكر.

★ براءة ياقوت من تهمة التعصب ضد علي – رضي الله عنه – :

ياقوت ممن يحب قراءة الكتب والتمعن فيها ، ولم يقف عند قراءة نوع معين من الكتب ولم يحبس نفسه في بوتقة واحدة من بوتقات علوم اللغة العربية ، بل قرأ في كل المجالات التي أتيحت له ، ومن الكتب التي قرأ فيها ياقوت " كتب الخوارج " ومن المعروف أنهم متعصبون ضد علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – ولعله اقتنع بما قرأه حيث

(١) " قلائد الجمان " لابن الشعار : ٩ / ٣٣٩ – ٣٤٩ .
(٢) " إنباه الرواة " : ١ / ٢٣٦ ، ترجمة رقم : ١٢٧ .
(٣) " المصدر السابق " : ١ / ٢٦٠ .

علقت كتاباتهم في ذهنه وتأثر بهم فتعصب ضد من يتعصب لعلي بن أبي طالب ، حيث حدثت في دمشق مناظرة بينه وبين أحد ممن يتعصب لعلي – رضي الله عنه – وكان ذلك الرجل بغداديا ، فذكر ياقوت عليا بما لم يرضه الرجل ومن معه ، فكاد الناس يقتلونه فنجا ولكن الوالي قد طلبه فهرب من دمشق وتجنب البلد التي فيها من ناظره فذهب إلى حلب ومنها إلى الموصل ثم إلى بلاد أخرى كثيرة ، وقد ذكر معظم من ترجم لياقوت تعصبه ضد علي ، فها هو **ابن خلكان** ، يقول :

" وكان متعصبا ضد علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – وكان قد طالع شيئا من كتب الخوارج ، فاشتبك في ذهنه منه طرف قوي ، وتوجه إلى دمشق في سنة ثلاث عشرة وستمائة وقعد في بعض أسواقها وناظر بعض من يتعصب لعلي – رضي الله عنه – وجرى بينهما كلام أدى إلى ذكر عليا – رضي الله عنه – بما لا يسوغ "(١) .

ونقل ابن العماد هذا الخبر دون أن يعلق عليه(٢) .

وها هو الدلجي ، يقول : " اتفق له مرة أنه تنقص عليا – رضي الله عنه – فثار عليه الناس وكادوا يقتلونه فهرب إلى حلب "(٣) .

هذا ، ولعل ياقوتا قد رجع عن موقفه ضد علي بن أبي طالب وعدل عن التعصب ضده ، والأرجح أنه لم يكن متعصبا ضد أمير المؤمنين علي من الأصل وأنه كان متعصبا ضد من يتعصب له أو لأهل البيت وهم الشيعة بالطبع وليس ضده هو – رضي الله عنه – .

وقد جمعت ما يدل على ذلك من كتابات ياقوت نفسه ومن كتابات غيره ، وسأبدأ بكتاباته أولا .

---

(١) " وفيات الأعيان " لابن خلكان : ٦ / ١٢٧ – ١٢٨ .
(٢) " شذرات الذهب " ابن العماد الحنبلي : ٥ / ١٢١ .
(٣) " الفلاكة والمفلوكون " الدلجي : ١٢ .

يقول ياقوت في الفصل الأول من " معجم الأدباء " الذي وضعه في فضل الأدب وأهله وذم الجهل وحمله :

" قال علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – ....." .

وذكر في موضع آخر " وقال رضي الله عنه ..." .

وقال : " قال كرم الله وجهه ....." .

وقال : " وروي أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – "

فهل هذا كلام يقوله أحد متعصب ضد أمير المؤمنين علي ؟! ، فقد اعترف له بإمارته للمؤمنين ، واعترف بتكريم الله لوجهه ، ودعا له بالرضا من الله ، وقد ورد ذكر علي بن أبي طالب في مواضع أخرى كثيرة من الكتاب ، وليس فيها أدنى تجريح أو تعصب ضده ، بل قد ترجم له ياقوت في معجمه في الترجمة رقم (٧٨٤) الواردة في الجزء الرابع فلو كان متعصبا ضده لتجاهل ذكره ، والناظر في ترجمته لعلي بن أبي طالب – رضي الله عنه وأرضاه – نظرة متفحصة يجد قدر تعظيم ياقوت لعلي ، فيقول :

" أخباره عليه السلام كثيرة وفضائله شهيرة إن تصدينا لاستيعابها وانتخاب مستحسنها كانت أكبر حجما من جميع كتابنا هذا "(١) .

وحقيقة لم يكن ثناء ياقوت على علي – رضي الله عنه – من جراء خوفه من القتل على أيدي الشيعة ، فصاحبنا كان شحيحا بكتابه هذا على كل من طلبه ولم يطلع أحد عليه ، فلا داعي إذن أن ينافق ياقوت ، كما أنه قد عارض الشيعة وجها لوجه وذكر رأيه في مذهبهم بكل جرأة فهل يخاف إذن من أن يذكر ذلك في كتاب لم يره أحد إلا بعد وفاته ؟!!!

(١) " معجم الأدباء " (٤ / ١٨٠٩) ، ترجمة رقم ٧٨٤ .

وقصر ترجمته – رضي الله عنه – الموجودة في معجم الحموي لا تدل على التعصب ضده ، لكن السبب في قصر هذه الترجمة أن ياقوتا يتناول في معجمه فئات معينة فكما قلنا هو من المعاجم المتخصصة ، فهو يتناول بالذكر الأدباء فقط ، وسيدنا علي من أولئك الأدباء لذا ورد ذكره . لكن فضائله ومناقبه كثيرة ومتناولة بين أيدي الناس ، وبالطبع مكانها ليس معجم الحموي ، بل المكان المناسب لها إما كتب السيرة المفردة ، أو كتب المناقب والفضائل أو كتب السير والمغازي ، وقد وضح ياقوت هذا في مبتدأ حديثه عن علي – رضي الله عنه – حيث ، قال : " وأخباره عليه السلام كثيرة وفضائله شهيرة إن تصدينا لاستيعابها وانتخاب مستحسنها كانت أكبر حجما من كتابنا هذا " ، كما أن من عادة المؤرخين عندما يتناولون المشهورين من الناس ألا يفرطوا في ترجمتهم ، بل ومنهم من يكتفي بذكر اسمهم فقط .

ومن العلماء القدماء من نظر للأمر بعين متفحصة وبموضوعية ولم ينقل الخبر دون تعليق ، فها هو **ابن حجر العسقلاني** بعد أن نقل خبر تعصبه ضد علي – رضي الله عنه – يقول :

" ولم أر في شيء من تصانيفه التصريح بالنصب بل يحكي فضائل علي على ما يتفق "(١) .

ومن المحدثين من فسر كلمة " كان منحرفا " تفسيرا منطقيا بعيدا عن النقل الأعمى فيجيء الدكتور **عمر عبد السلام تدمري** في هامش تحقيقه لتاريخ الإسلام يقول عن معنى تلك الجملة : " أي كان متحرفا عن التشيع لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه "(٢) .

(١) " لسان الميزان " ابن حجر : ٦ / ٢٣٩ .
(٢) " تاريخ الإسلام " الذهبي : ٤٥ / ٢٦٦ ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري .

وقد لعن ياقوت ابن ملجم قاتل أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب ، يقول في معجم البلدان : " قال عبد الله بن مالك : جمع الأطباء لعلي ابن أبي طالب - رضي الله عنه - لما ضربه ابن ملجم ، لعنه الله تعالى "(١).

لذا فياقوت لم يكن متعصبا ضد علي – رضي الله عنه – أبدا بل في جنبات كتبه ما يدل على حبه له وحبه لآل البيت ، لكنه ممن لا يميلون إلى التعصب لعلي ، أقصد التعصب الزائد عن الحد الذي يوقعنا في مغبة سب الصحابة ، وقذف أمهات المؤمنين بالزنا مثلما يفعل غلاة الشيعة - قاتلهم الله - فكلنا نحب عليا فهو سيدنا وابن عم سيدنا، وكلنا نتعصب لأهل البيت ونحبهم ، لكن دون المساس بغيرهم والسب للصحابة الكرام الأطهار.

***

- حسن حلقه :

وياقوت حسن الخلق غير فاحش ولا متفحش على الرغم من نشأته التي افتقر فيها من يوجهه وينصحه ويؤدبه إلا أن شخصيته خلوقة بطبيعتها ، فهو ينزه نفسه عن **سب** الآخرين ، ولا يحب أن يورد في كتابه سب أحد إلا في مواضع قليلة ، فمثلا ينزه الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين عن شيء حدث بينهما ، حيث يقول : " ثم إنني بعت النسخة من الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب حلب بتغيير المشتري من غير مكسب وجرت لي فيها قصة طريفة أنزه هذا السلطان عن ذكرها ، فإنه وإن كان الحظ حرمني فإنه جواد عند غيري "(٢).

(١) " معجم البلدان " ياقوت الحموي " : ١ / ٩٣ ، طبعة دار صادر بيروت – لبنان ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م .
(٢) " معجم الأدباء : ٥ / ٢١٨٥ ، ترجمة رقم : ٨٩٩ .

obeikandl.com

وكان إن وجد خبرا أو رواية فيها فحش نزه كتابه عنها ، يقول : " والقصيدة طويلة نحو مائة وأربعين بيتا فيها من الفحش ما لا يجمل بالأديب ذكره وفيما أوردناه كفاية "(١) .

وكان ياقوت طيب النفس عفيفها ، لا يرجو من الدنيا إلا القليل ، ولا يطلب الإمارة والسلطان ، وقد وضح ذلك في كتابه معجم الأدباء حيث ، قال في مقدمته للكتاب : " واعلم أنني لو أعطيت حمر النعم وسودها ، ومقانب الملوك وبنودها ، لما سرني أن ينسب هذا الكتاب إلى سواي ، وأن يفوز بقصب سبقه إلاي "(٢) .

وكان ياقوت لا يحب أن يثني على نفسه كثيرا ، فمع اعتراف كل من ترجم له بحسن نثره وجمال نظمه نجده يقلل من نفسه ويعترف بعكس ذلك ، قائلا : " حتى قلت فيه – يقصد معجم الأدباء – مع اعترافي بقلة بضاعتي في الشعر وعلمي بركاكة نظمي والنثر "(٣) وحقيقة لم ينفرد ياقوت بهذا الأمر ، بل هو من سمت العلماء وخلقهم .

ومن المواقف التي تدل على حسن خلقه ما فعله مع زوجة وأولاد مولاه عسكر حيث توجه إليهم بعد وفاة سيده وأعطاهم مما معه من أموال كان يتاجر بها له حتى رضوا فكان من الممكن أن يسرق المال الذي بحوزته ولكنه فعل ما جبلته عليه طبيعته الحسنة ، فلو كان ياقوت يطلب الدنيا ويبتغي الغنى لما فعل ذلك ، فبالطبع لا يعلم أحد مقدار المال الذي أعطاه عسكر له .

كما كان ممن يعترف بالجميل ويحسن الثناء على من ساعده ، حيث أثنى ثناء جميلا على الوزير القفطي ، وأرسل له رسالة يعترف فيها بذلك ، يقول : " بسم الله الرحمن

(١) المصدر السابق : ٣ / ١٠٦١ ، ترجمة رقم :٣٧٢ .
(٢) المصدر السابق : ١ / ١٣ ؛ والمقانب هي جماعة الخيل وواحدها مقنب .
(٣) المصدر السابق : ١ / ١٢ .

الرحيم . أدام الله على العلم وأهله والإسلام وبنيه ما سوغهم وحباهم ومنحهم وأعطاهم من سبوغ ظل المولى أعز الله أنصاره وضاعف مجده واقتداره ونصر ألويته وأعلامه ، وأجرى بإجراء الأرزاق في الآفاق أقلامه وأطال بقاه ورفع إلى عليين علاه في نعمة لا يبلى جديدها"(١) .

وقد اتهمه ابن الشعار في ترجمته له بالبخل والشح بمؤلفاته ، وقد تحامل عليه ابن الشعار في هذا الأمر ، فقد عهد ياقوت بكتبه إلى عز الدين ابن الأثير المؤرخ وطلب منه أن يسلمها إلى الشيخ عبد العزيز بن دلف ناظر الوقف بحلب ، وأن تكون كتبه وأوراقه وقفا على مسجد الزيدي بدرب دينار ببغداد ، يقول دكتور إحسان عباس : " إذن البخل لم يكن قاعدة عامة في طبع ياقوت ، ولكنه لم يكن ليخرج كتابه إلى الناس قبل تبييضه وتنقيحه وتهذيبه . هكذا يبدو في بعض مراحل حديثه في كتابه إلا أنك تجده في موضع آخر ، يقول : إن بعضهم التمس الكتاب لينسخه فوجدت في نفسي شحا عليهم .....مع كوني غير راض لنفسي بذلك المنع ، ولا حامد لها على ذلك الصنع ، لكنها طبيعة عليها جبلت ، وسجية إليها جبرت "(٢) .

وقد تحامل الوزير القفطي على ياقوت وقال عنه كلاما غير صحيح حيث قال : " فتوسمت فيه أمورا لم يخل حدسي فيها وعلمت أنه لا يصلح للعشرة"(٣)

كما اتهمه بالسرقة والسطو على مؤلفاته – يقصد مؤلفات القفطي – ، واتهمه كذلك بعدم معرفته بالعربية وخلطه الغث بالثمين ، يقول :

---

(١) انظر " وفيات الأعيان " و " إنباه الرواه " في ترجمتهما لياقوت .
(٢) " معجم الأدباء " : ٧ / ٢٩٠٩ – ٢٩١٠ .
(٣) " إنباه الرواة على أنباه النحاة " ، القفطي : ٤ / ٨٢ ، ترجمة رقم : ٨٤٠ .

" وإنما حملني على ذكره في هذا المصنف ، لأنه لفق مما استعار مني كتابين أحدهما في " الرد على ابن جني " عند كلامه في الهمزة والألف من كتاب " سر الصناعة " فلم يأت فيه بشيء وصنف كتابا في " أوزان الأسماء والأفعال الحاصرة لكلام العرب " فخلط الغث بالثمين وقرن الفروع بالأصول ، غير فارق في التبيين لقلة أنسته بالعربية وأصولها ، وعاتبته فيهما فما رجع ، وعرفته مواضع الخطأ ومقاصده فما ارعوى ولا سمع وإذا عزيت بعده إليه كانت عارا عليه "(١) .

وحقيقة تحامل القفطي على ياقوت لم يكن لعيب في الحموي نفسه ، بل العيب في القفطي فكثيرا ما كانت تعميه الغيرة وحب النفس فيحيد عن الحقيقة ، خاصة مع معاصريه فنجده تحامل على عبد اللطيف البغدادي (٢) تحاملا بينا ، بالرغم من اعتراف المؤرخين بجزالة أسلوب البغدادي وتحليه بفضائل الأخلاق ، ومع هذا يقول عنه القفطي : " ولقد اجتمعت به واختبرته فرأيته فيما يدعيه كالأعمى الذي يتحسس ويدعي حدة النظر، وما وثقت من روحي بذلك حتى سألت جماعة من أهل العلوم متفرقة قد كان يدعيها فذكروا من أمره بعد نظره وكلامه نظير ما علمته منه "(٣) .

ووصف كتبه قائلا :

" وأبيعت كتبه بحلب فوقعت على شيء منها ، وهي غاية في الانحطاط عن رتبة الكمال ، ونعوذ بالله من فتنة الدعوى " .

وتعدى ذمه لخلقه وكتبه إلى ذمه لشكله وسمته وهيئته وأخلاقه ، وقد نقد ابن العماد هذا الكلام يقول ناقلا من الذهبي :

---

(١) " إنباه الرواة " القفطي : ٤ / ٨٥ .
(٢) ترجمته في:" المستفاد من ذيل تاريخ بغداد ": ١٧٣ ، " ذيل مرآة الزمان" : ١ / ١٨٠ ، " الفوات " : ٢ / ٣٨٥ ، " طبقات السبكي " : ٨ / ٣١٣ ، " إنباه الرواة " : ٢ / ١٩٣ ، " بغية الوعاة " : ٢ / ١٠٦ .
(٣) انظر : " إنباه الرواة " القفطي : ٢ / ١٩٣ .

" ولقد بالغ القفطي في الحط عليه وظلمه وبخسه حقه "(١) .

وكلام القفطي كله يعيب البغدادي ولا يذكر له مزية واحدة ، وهنا تتجلى قضية واضحة وهي : أن القفطي عندما ذكر أن كل علماء عصره نقدوا البغدادي لم يسمهم بل ترك الحوار عاما دون تحديد ، كما أن مسألة الاختبار التي جرت له في مصر لم يعتمد فيها على آراء أناس ذوي علم معروف ، وإنما اعتمد على آراء بعض طلبة العلم وأناس مجهولون، كأمثال الحاجب لؤلؤ ، كما أن أكثر ما عابه عليه شكله وخلقه وهل هذا شيء يعاب عليه، هل هو من اختار شكله ، وقد استقصى د. بول غليونجي (٢) هذه القضية – قضية ذم القفطي للبغدادي – وفيها يقول : " إن شهادة القفطي على البغدادي شهادة تغشاها الريب والشكوك ، ويشيع فيها التحامل الشاذ الغريب ، ولعل مصدر ذلك كله أن يكون البغدادي ، بحكم ما عرف عنه من الصلف والغرور ، لم يول صاحبه حين مر بحلب أي قسط من الاعتبار ، بدليل أنه أهمل ذكره تماما حين تحدث عن نفسه وعن تنقلاته بين البلاد "(٣) .

وينطبق هذا الأمر على نقده للحموي ، فغيرة القفطي من علماء وأعيان عصره هي ما تدفعه إلى الحيد عن الأمانة العلمية ، وتدفعه أحيانا إلى الحقد وبخس الحق والدليل على ذلك أنه قد نقل فقرات عديدة من معجمي ياقوت ، بل ونراه نقل منه تراجم كاملة ، موضحا أنه لا يعرف شيئا عن أولئك النفر سوى ما قاله له الحموي (٤) .

---

(١) " شذرات الذهب في أخبار من ذهب " ابن العماد الحنبلي : ٥ / ١٣٢ .
(٢) " عبد اللطيف البغدادي طبيب القرن السادس الهجري شخصيته وانجازاته " د. بول غليونجي ، طبعة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م العدد : ١١٤ .
(٣) " المصدر السابق " : ٢٧ – ٢٨ .
(٤) انظر إنباه الرواة : ٢ / ٣٨٩ – ٣٩٠ ، في ترجمة القفطي للغوري التي جاءت برقم : ٥٤٠ ، وانظر المصدر نفسه : ٣ / ٤٠ – ٤١ ، في ترجمة القفطي للكيشي التي جاءت برقم : ٥٦٦ .

وعندما أراد القفطي أن يترجم للكيشي ولم يجد كلاما يكتبه عنه استشهد بكلام ياقوت عن بعض كتبه النحوية اللغوية ، ولكي يجد سببا لاعتماده على كلام ياقوت نسي أنه ذمه فقال : " وإنما حكى لي ياقوت الحموي الرومي الجنس ، مولى عسكر الحموي التاجر نزيل بغداد – وكان ياقوت هذا راغبا في طلب الأدب – " (١) .

واعتمد على كلام ياقوت في كتاب لغوي وهو كتاب يشتمل على ما اتفق لفظه واختلف معناه يقول على لسان الحموي : " ووقفت عليه فرأيته أجمع ما صنف في هذا المصنف " .

إذن فغيرة القفطي من الحموي والبغدادي هي ما دعته إلى الذم فيهما.

– وفاته :

توفي ياقوت في سنة (٦٢٦ هـ) وقد أجمع كل من ترجم له ، على هذا التاريخ .

*****

(١) " المصدر السابق " : ٣ / ٤٠ .

obeikandl.com

- طبعات الكتاب :

(١)- (طبعة مرجليوث)[١] بدأ مرجليوث بطبع هذا الكتاب في القاهرة سنة ١٩٠٧م في سبعة أجزاء معتمدا على نسخة خطية محفوظة في مكتبة بوريل بجامعة أكسفورد تحت رقم (٧٢٣) وتحملت لجنة " جيب " عبء تكاليف الطبع والنشر.

(٢) – وقام بإعادة طبعه نظرا لنفاذ نسخه ، وذلك في عام ١٩٢٢م معتمدا على التعديلات التي أشار بها عليه أصدقاؤه من العرب والمستشرقين أمثال . أحمد زكي والأب أنستانس ، والمستر آمدروز و واعتمدوا في ذلك على بعض الكتب التي ظهرت من مخبئها خلال هذه الفترة ، كـ " طبقات الزبيدي " ، و" تاريخ دمشق لابن عساكر " .

(٣) – أعادت دار المأمون طبع هذا الكتاب في عام ١٩٣٦م في مصر بإشراف د. أحمد فريد رفاعي بالاشتراك مع وزارة المعارف ، وأشرف على هذه الطبعة الأستاذ عبد الخالق عمر وبعض من الأساتذة الذين قاموا بشرح مبهم الطبعة الثانية وأوضحوا مشكلها واحتوت هذه الطبعة على إضافات قدمها الأستاذ . يهوذا وصدرت هذه الطبعة في عشرين جزءا في بدايتها إهداء من أحمد فريد الرفاعي إلى الملك فاروق ، ثم تعريف بالناشر مرجليوث في صفحتين ونبذة عن مؤلفاته في صفحتين ، ثم مقدمة الناشر للطبعة الأولى ، ثم مقدمة الناشر للطبعة الثانية على اعتبار بأن الطبعة التي في عام

---

(١) ولد دافيد مرجليوث في إنجلترا بمدينة لندن في ١٧ / ١٠ / ١٨٥٨م وهو أكبر أولاد أبيه الذي كان مبشرا ، ودرس في جامعة أكسفورد وحصل على الماجستير والدكتوراه في الآداب وعمل أستاذا لتدريس اللغة العربية في جامعة ونشستر ، ورأس عدة مناصب منها منصب أستاذ خاص في تاريخ الشرق في جامعة البنجاب بين سنتي ١٩١٦م و ١٩١٧م ، وعمل مدرسا للغات الشرقية في جامعة لندن ١٩١٣م ، وكرم في سوريا فعين عضوا فخريا في كثير من الجمعيات والمجامع العلمية في بلده والبلاد الأخرى . ولاتصاله بالأدب العربي نجد أن أكثر المصنفات التي صنفها أو أشرف على طبعها تتصل بالأدب العربي ، مثل " رسائل أبي العلاء " و " محمد نهضة الإسلام " ، " الرسائل المحمدية " ، كما أن أكثر الكتب التي حققها تتصل بالأدب أيضا كـ " شعر أرسطو " ، " معجم الأدباء " ، " ديوان سبط بن التعاويذي " .

١٩٢٢م لم ينجز فيها أي جديد عن الطبعة الأولى فاعتبرنا طبعة دار المأمون هي الطبعة الثانية ، وبعد ذلك وقبل البدء في متن الكتاب توجد ترجمة لياقوت الحموي

(٤) – ثم قامت دار إحياء التراث بإعادة طبع هذا الكتاب مرة أخرى معتمدة في ذلك على طبعة دار المأمون – كعادة هذه الدار دائما مع أغلب كتب التراث التي تنشرها – ولم تقم كعادتها أيضا بإضافة أي تعديلات أو إضافات على متن الكتاب غاية ما فعلت أنها غيرت غلاف الكتاب ودمجته في عشرة أجزاء بدلا من عشرين جزءا .

(٥) – الطبعة التي قام بتحقيقها د . إحسان عباس – جزاه الله خيرا – فقد بذل جهدا حق علينا أن نشكره عليه ، حيث أضاف العديد من التراجم التي لم ترد في الطبعات السابقة للكتاب ، وقام بتنقيح وتصحيح ما وقعوا فيه من أخطاء وقامت دار الغرب الإسلامي بطبع هذا الكتاب عام ١٩٩٣م وصدرت في ستة أجزاء وجزء خاص بالفهارس أعدها الأستاذ الدكتور إحسان عباس .

وتلك هي النسخة التي سأعتمد عليها في بحثي هذا ؛ وذلك لعدة أسباب:

(١) أنها محققة بعناية عالم له باع كبير في ميدان الدراسة الأدبية والتحقيق وقد رجع هذا المحقق – إحسان عباس – إلى أصول خطية للكتاب ذات أهمية بالغة وهي أصول لم تتوفر لمن حقق الكتاب قبله .

(٢) أفاد من دراسات سابقة قام بها دكتور إسعاف النشاشيبي التي نشرها متتابعة في مجلة الرسالة ، والتي قدم فيها تصويبات كثيرة على الطبعات المتداولة من معجم الأدباء .

(٣) استفاد أيضا من الزيادات التي حصرها المرحوم مصطفى جواد في سلسلة مقالات بمجلة المجمع العلمي العراقي دلت على أن هناك تراجم عديدة ضائعة ، وقد جمعها

استنادا على كتب كثيرة نقلت من معجم الأدباء أهمها الوافي بالوفيات للصفدي وقد بلغت هذه التراجم ٤٦ ترجمة.

(٤) – كما استعان بنسخة مختصرة خطية اختصرها التكريتي من معجم الأدباء كانت هذه المخطوطة ذات أثر بالغ إذ أن التراجم التي احتوت عليها – مما لم يرد في معجم الأدباء المطبوع قبل طبعة إحسان عباس – ١٦٠ ترجمة .

(٥) – و تلك الطبعة تعد أقرب الطبعات التي بين أيدينا لمعجم الأدباء الذي كان ولا يزال محط أنظار الجميع ، حيث لم يصل إلينا كاملا حتى وقتنا هذا .

(٦) – قام الدكتور إحسان عباس بعمل دراسة متميزة وضعها في الجزء السابع من الكتاب ، والذي خصصه للفهارس .

(٧) - كما قام بجمع شعر ياقوت ووضعه في تلك الدراسة مما وفر علينا مشقة البحث والتنقيب عن شعر الحموي .

(٨) – وقام بإحالة متصفح المعجم إلى أماكن وجود الترجمة ، وقام بإثبات جل المصادر التي تناولتها .

*****

obeikandl.com

ياقوت الحموي شاعرا :

كم من أديب فاضت خواطره بأبيات شعرية نافست - أو كادت تنافس - من كان الشعر صنعتهم ، ومن الأدباء من كتب شعرا متواضعا ولكنه يعبر إما عن حياته الخاصة التي عاشها أو الحياة العامة أي العصر الذي عاش فيه ، فمن هؤلاء الثعالبي مثلا الأديب المعروف كتب أبياتًا شعرية كثيرة كلها ذات مناسبة مرت به في حياته ، فشعره شعر مناسبات .

وياقوت الحموي من أولئك الأدباء الذين كتبوا شعرا ، ونعده أيضا من شعراء المناسبات ، فلكل مقطوعة من مقطوعاته مناسبة قيلت فيها .

وقد اعترف ياقوت بقلة بضاعته في الشعر بقول : " حتى قلت فيه مع اعترافي بقلة بضاعتي في الشعر ، وعلمي بركاكة نظمي والنثر "(١) .

وحقيقة فأول من أشار إلى شعر ياقوت هو الدكتور الديب في رسالته التي بعنوان ياقوت الحموي أديبا وناقدا ، حيث أفرد له فصلا كاملا بعنوان ياقوت الحموي شاعرا وبذل مجهودا لا بأس به في جمع اثنتي عشرة قصيدة ومقطعة في خمسة أغراض مختلفة معترفا أنه من المؤكد وجود مقطعات أخرى لياقوت والتي لم يقف عليها أو لم يثبتها في بحثه وذلك لعدم تأكده من صحة نسبتها إليه ، يقول :

" ولقد تمكنت من العثور على بعض القصائد والمقطوعات مبعثرة في مؤلفاته ولكن هذا القدر اليسير لا يمكن أن يكون هو كل ما أنتجه وجادت به قريحته لأنه يملك قدرة على صوغ هذا الفن ، وليس معقولا أن تغيب وتختفي هذه القدرة طيلة حياته إلا من مقطوعات وقصائد معدودة لا تصلح لتكوين ديوان أو لجعل صاحبنا شاعرا بين الشعراء كما عثرت

(١) معجم الأدباء : ١ / ١٢ .

على مجموعة أخرى من القصائد والمقطوعات وردت في كتبه في ثنايا كتبه ، ولم أشأ أن أتحدث عنها لعدم التأكد من نسبتها إليه "(١).

ثم يأتي د . إحسان عباس ويثبت صدق حدس د . الديب ويجد مقطوعات أخرى لياقوت غير التي وجدها هو ، تخطت ضعف ما أورده في رسالته ، فقد وجد د : إحسان محقق المعجم تسعة وعشرين مقطوعة في نفس الأغراض الخمسة التي ذكرها دكتور الديب .

*****

الأغراض الشعرية التي كتب فيها ياقوت :

حياة الشاعر – إن اعتبرنا ياقوتا من الشعراء وذلك طيلة هذا المبحث – هي المنهل الذي ينهل منه موضوعاته وألفاظه ومعانيه ، سواء كانت حياته الخاصة أو الحياة العامة فهما اللتان تقولبان له ما سيسير عليه في شعره ، وترسمان له الأغراض التي لا يستطيع أن يحيد عنها ، ولا يستطيع أن يغفلهما في كل كتاباته .

لذا لم يكتب الحموي في كل أغراض الشعر ، فلم يكتب مثلا في الرثاء ، إذ لم يكن لديه من يرثيه فقد عاش طيلة عمره دون عائلة ، فهو لا يعرف شيئا عن أي فرد من أفراد عائلته كما أن سيده الذي من الممكن أن يرثيه بعد مماته حدثت بينهما جفوة ، فهناك إذن نوع من أنواع عدم المحبة بينهما ، وإن كانت العلاقة عادت مرة أخرى بعدما استعاده سيده ليتجر له ببضائعه ، إلا أنها لم تكن بالطبع كاملة الصفاء ، هذا ما يخص رثاء الأهل فكيف لمحروم الشيء أن يتناوله بالحديث ، كما أن أصدقاءه المقربين القفطي وابن العديم قد توفيا بعده ، لذا لم تحتو مقطعاته على فن الرثاء .

(١) ياقوت الحموي أديبا وناقدا / د : السيد محمد الديب : ٣٢٧ .

وافتقرت مقطعاته لغرض الفخر، فلم يكن لدى ياقوت ما يفتخر به ، فهو ليس ذو نسب أو جاه أو سلطان فبم يفتخر إذن وليس لديه ما يدعو للفخر، لذا لم يفتخر إلا بشيء واحد وهو كتابه الذي أبدع فيه معجم الأدباء ، وكأنه كان ينتظر لنفسه شيئا يفتخر به فبالغ في الفخر بمعجمه .

كما افتقرت إلى غرض آخر من أغراض الشعر وهو الهجاء ، فكيف لمملوك عاش حياته في ذل العبودية ، ومرارة الفرار من الشيعة ، والهروب من التتار أن يهجو أحدا ليزداد خوفه وهروبه ، فلم نجد له سوى مقطعة واحدة في هذا الفن .

وانعدم غرض الوصف أيضا ، فلم تصل إلينا ولو مقطوعة واحدة في غرض الوصف وقد كتب دكتور إحسان عباس أبيات ياقوت التي قالها في كتابه تحت غرض الوصف وسأكتبها تحت غرض الفخر فهو فيها يفتخر بمعجمه ولا يصفه ، و قصيدة ياقوت التي قالها بعدما تحسر على عدم كتابته لرسائل القطان إلى الوطواط التي عرضها عليه السمعاني حال وجوده بمرو ذكرها دكتور الديب تحت غرض الوصف ، وسأذكرها تحت غرض الشكوى فهو يتشكى ولا يصف .

الغزل والحنين

بين أيدينا للحموي تسع قصائد في الغزل ، ما بين الجيد والرديء ، فمن جيد ما قاله في الغزل أبياته التي يحن فيها إلى ليالي الشاذياخ تلك البلد التي قابل فيها محبوبته التي أحبها كثيرا ، ولكنه اضطر إلى بيعها فحن إلى تلك الأيام وحن إلى محبوبته ، يقول لنا عن مناسبة تلك القصيدة :

" وكنت قدمت نيسابور في سنة ٦١٣هـ وهي الشاذياخ فاستطبتها وصادفت بها من الدهر غفلة خرج بها عن عادته واشتريت بها جارية تركية لا أرى أن الله تعالى خلق أحسن منها خلقا وخلقا ، وصادفت من نفسي محلا كريما ، ثم أبطرتني النعمة فاحتججت بضيق اليد فبعتها ، فامتنع علي القرار ، وجانبت المأكول والمشروب حتى أشرفت على البوار ، فأشار علي بعض النصحاء باسترجاعها ، فعمدت لذلك واجتهدت بكل ما أمكن فلم يكن إلى ذلك سبيل لأن الذي اشتراها كان متمولا ، وصادفت من قلبه أضعاف ما صادفت مني ، وكان لها إلي ميل يضاعف ميلي إليها ، فخاطبت مولاها في ردها علي بما أوجبت به على نفسها عقوبة فقلت في ذلك :

(من الطويل)

ألا هل ليالي الشاذياخ تؤوب ... فإني إليها ما حييت طروب

بلاد بها تصبي الصبا ويشوقنا الـ ... ـشمال ويقتاد القلوب جنوب

فؤادي لا يزال مروعا ... ودمعي لفقدان الحبيب سكوب

فراق لم يرده ملالة ... محب ولم يجمع عليه حبيب

ولم يحد حاد بالرحيل ولم يرع ... عن الإلف حزن أو يحول كثيب

أئن ومن أهواه يسمع أنتي ... ويدعو غرامي وجده فيجيب

وأبكي فيبكي مسعدا فيلتقي ... شهيق وأنفاس له ونحيب
على أن دهري لم يزل مذ عرفته ... يشتت خلان الصفا ويريب
ألا يا حبيبا حال دون بهائه ... على القرب باب محكم ورقيب
فمن يصح من داء الخمار فليس من ... خمار خمار للمحب طبيب
بنفسي أفدي من أحب وصاله ... ويهوى وصالي ميله ويثيب
ونبذل جهدينا لشمل يضمنا ... ويأبى زماني إن ذا لعجيب
وقد زعموا أن كل من جد واجد ... وما كل أقوال الرجال تصيب[1]

من المناسبة التي قيلت فيها القصيدة يتبين لنا أمر مهم وهو أن ياقوتا كان من المتسرعين في قراراتهم ، فقد تسرع في ذمه لأرتخشميثن ثم رجع عن ذلك ، وقال : " إن تلك البلد وأهلها أولى بالمدح " ، ولكنه ذمها لما حدث له من متاعب في تلك البلد ، والآن يتسرع في بيعه لحبيبته ، ثم يندم على ذلك .

فالحموي لم يكن صادقا في حبه لتلك الجارية التركية ، إذ لو أن حبه كان صادقا لما جالت في نفسه فكرة بيعه من يحب ، فكيف لمحب يئن ويتوجع ويسكب الدمع - كما يقول هو في أبياته - أن يبيع من يحب ، أبمجرد أن يتعرض الإنسان لضائقة يبيع حبيبته ؟!! فضيق ذات اليد ما هي إلا حجة واهية منه ليبيع محبوبته ، ويدل على ذلك قوله هو حيث قال : " ثم أبطرتني النعمة فاحتججت بضيق اليد فبعتها " كما أنه سرعان ما أراد أن يردها إليه ، أحلت تلك الأزمة سريعا ؟!، أم أنه كان من الممكن أن يعيش ولا يبيع حبيبته.

(١) معجم البلدان : ٣ / ٣٠٦ – ٣٠٧ .

فهو متسرع في قراراته وغير صادق في حبه ، وقد عاب ياقوت على الزمان ، ويزعم أنه هو الذي فرق بينه وبين محبوبته ، والحقيقة أن العيب فيه وليس في الزمان ، وصدق القائل " نعيب زماننا والعيب فينا " فالعيب في ياقوت وعدم صدقه في حبه .

والأبيات في مجملها تنم عن تجربة صادقة ، ولا أقول حب صادق فتجربته صادقة فهذا موقف قد تعرض له بالفعل ، فجاءت العبارات والألفاظ سلسة يسيرة غير معقدة وجاءت الأفكار مترابطة إلى حد كبير.

يبدأ ياقوت أبياته بسؤال فيه حرقة الحنين إلى محبوبته ، ولوعة الفراق ، وشدة الرغبة في أن تعود ليالي الشاذياخ ، وكتب عبارات جميلة تعبر عن تلك الرغبة الحارقة " ويشوقنا الشمال ويقتاد القلوب جنوب " " فؤادي لا يزال مروعا " ، " ودمعي لفقدان الحبيب سكوب " " أئن ومن أهواه يسمع أنتي " ، " وأبكي فيبكي مسعدا " .

ثم يعود كعادته بإلقاء اللوم على دهره يقول :

" على أن دهري لم يزل مذ عرفته يشتت خلان الصفا ويريـــب "

وفي البيت قبل الأخير يقول :

ونبذل جهدينـــا لشمل يضمنا ويأبى زماني إن ذا لعجيب

مع أن من حال بينه وبين محبوبته ذلك التاجر الميسور الحال الصادق في حبه لتلك التركية ، فرفض أن يفرط فيها على الرغم من معرفته لحبها لياقوت وعدم حبها له ولكنه لصدقه في حبه أبى أن يفرط فيمن أحبها قلبه ، على عكس صاحبنا الذي فرط فيها بسهولة .

ثم يطلع علينا ببيت رائع يقارن فيه بين مخمور من الخمر. ومخمور الحب فالأول يصحو من خماره ، أما الثاني فما له من صحوة ، يقول :

فمن يصح من داء الخمار فليس من خمار خمار للمحب طبيـــب

وفي تلك الأبيات قلت المحسنات البديعية ، فليس من داعي لوجود المحسنات مع تلك التجربة الصادقة فنجد مثلا التضاد في البيت الثاني " الشمال وجنوب " والجناس التام في " خمار وخمار " .

ويعود في البيت الأخير بحكمة جميلة وهي أن أقوال الرجال لا تصيب دائما يقول :

وقد زعموا أن كل من جد واجد وما كل أقوال الرجال تصيب

يعني أنه قد جد كثيرا واجتهد في رد جاريته إليه ، ولو أصابت كل أقوال الرجال لرجعت إليه محبوبته ، إلا أن هذا لم يحدث فلم ترجع إليه محبوبته مع كل جده واجتهاده لذا فقولهم " من جد وجد " قول خاطئ .

⋆ وله قصيدة غزلية أخرى يتغزل فيها بالعراق ، يقول :

" ماجان : بالجيم وآخره نون . نهر كان يشق مدينة مرو وماخان بالخاء المعجمة من قرى مرو، وذكرته في شعر قلته أنا عند كوني بمرو متشوقا إلى العراق :

(من الطويل)

تحية مغرى بالصبابـــة مغـــرم معنى بعيد الدار والأهل والهـــم
تراها إذا ما أقبل الركب هاجرت وتسري إذا ما عرسوا نحو تكـتم
أحملها ريح الجنوب مع الصبـــا إلى أرض نعم وافؤادي مـــن نعـــم
وأكنى بنعم في النسيب تعلـــة وأفدي بها من لا أقول ولا أسمي
وأرتاح للبرق العراقي إن بـــدا وأين من الماجان أرض المخـــرم
على أرض العـــراق وأهلهـــا وسقى ثراها من ملث ومـــــرزم

هرقنا قهوة اللهـو بعدهـــا ففقدي لها فقد الشبيبة بالرغم"(١)

وهنـاك اخـتلاف في طبعـة وسـتنفلد لايبـسك حيـث وردت تلـك الأبيـات بلفـظ آخر(٢).

واستكمالا لمسيرته في عدم صدقه في الحب يذكر لنا محبوبة أخرى وكنى عنها بنعم - لنتأكد من أدبه وحسن أخلاقه - ، وفي البيت الأخير تشبيه رائع حيث شبه فقده لتلك البلد كمن فقد شبابه رغما عنه ، فالشبيبة خلاف الشيب .

وفي طبعـة وسـتنفلد نجـد أن البيـت قبـل الأخير غير مـستقيم المعنـى " وسـقى نراهـا مـن ملـث ومـرزم " ، وفي طبعـة دار صـادر استقام المعنـى " وسـقى ثراهـا مـن ملـث ومـرزم " ، فالملث والمرزم " يعني المطر الذي لا ينقطع لذا فما ذكر في طبعـة دار صـادر هو الصواب ، فهو يدعو للعراق بأن يسقي الله ثراها بمطر لا ينقطع ، وإن كـان هنـاك خطأ من ياقوت هنـا ، فالدعاء بـالمطر الذي لا ينقطع يعد دعوة على تلك البلد بـالخراب ، فعنـدما حدث وأن دعـا النبي بنـزول المطر في عـام من الأعوام واستجاب له ربه فاستمر المطر عدة أيـام وغرقـت البلاد ، فجـاء النـاس إلى النـبي - صلى الله عليـه وسلم - وقـالوا لـه : إن المطر أغـرقهم فـادعوا لنـا ، فقـال - صـلى الله عليـه وسلم - : اللـهم حوالينـا لا علينـا " أي اللـهم اجعل المطر خارج البلد على أطرافها وليس عليها فالدعاء إذن بعدم انقطاع المطر ليس من

---

(١) معجم البلدان : ٥ / ٣٢ ، ط : دار صادر بيروت ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧م ، خمسة أجزاء .

(٢) وردت الأبيات في " معجم البلدان " : ٤ / ٣٧٨ – ٣٧٩ ، تحقيق وستنفلد بهذا اللفظ :

تحية مغرى بالصبابـة مغـرم معنى بعيد الدار والأهل والهـم
تراها إذا ما أقبل الركب هاجرت وترأى إذا ما عرسوا نحو تكتـم
أحملها ريح الجنوب مع الصبـا إلى أرض نعم وافؤادي من نعـم
وأكني بنعم في النسيب تعلـة وأفدى بها من لا أقول ولا أسمي
سلام على أرض العراق وأهلهـا وأين من الماجان أرض المخـرم
سلام على أرض العراق وأهلهـا وسقى نراها من ملث ومـرزم
بلاد هرقنا قهوة اللهو بعدهـا ففقدي لها فقد الشبيبـة بالرغـ

الدعاء الجيد ، فصاحبنا قد خانه المعنى هنا .

وتغزل ياقوت في الأتراك كثيرا كعادة من عاش في ذلك العصر ، فالتغزل في الأتراك قد انتشر في تلك الفترة ، فله في الغزل بالأتراك ثلاث مقطوعات أولها ما رواه عنه ابن الشعار :

(من المتقارب)

"وظبي من الترك ذي نخوة ... على الصب يعجز عنها الأسد

إذا رمت عقد وصال أبى ... وصال بجيش قوي العدد

بسيف اللحاظ ورمح القوام ... ولمع الخدود ولبس الزرد"(١)

جعل ياقوت مفاتنها أسلحتها التي تدافع بها عن نفسها وتدفع عنها من يريد وصالها ، فلحظها هو سيفها ، وقوامها رمحها ، ولمعة خدودها تمنع النظر إليها كالشمس فمن منا يستطيع أن ينظر إلى الشمس ، أو ينظر إلى شيء يلمع دون أن تتأذى عينه وملابسها عليها كدرع يحميها ، وكل هذه صور جميلة .

والمقطوعة الثانية تغزل فيها بولد تركي رمدت عيناه فوضع عليها وقاية سوداء يقول:

(الكامل)

"ومولد للترك تحسب وجهه ... بدرا يضيء سناه بالإشراق

أرخى على عينيه فضل وقايةٍ ... ليرد فتنتها عن العشاق

لو أن السوابغ دونها ... نفذت فهل لوقاية من واق"(٢)

---

(١) " قلائد الجمان " ابن الشعار : ٩ / ٣٤٢ .

(٢) وفيات الأعيان / ابن خلكان : ٦ / ١٣٨-١٣٩ ، تحقيق د : إحسان عباس ، طبعة دار صادر بيروت لبنان ، سبعة أجزاء ، وابن الشعار : ٩ / ٣٤٣-٣٤٤ .

السوابغ تعني الدروع ، والمعنى : فيه مبالغة مقبولة ، فالأتراك مشهورون بالجمال الزائد عن الحد ، حيث يقول إن ذلك الولد التركي على الرغم من أنه قد وضع وقاية سوداء على عينيه إلا أن فتنة عينيه تخرج من تحت تلك الوقاية ، فهل لهذه الوقاية السوداء من واق لها ، كما أنه شبه وجهه بالبدر.

والمقطوعة الثالثة في التغزل بالترك يقول فيها :

"بنفسه ٭ لبي مر بي في القلاقل فخلفني حلف البلى والبلابل(١)

٭٭ به الراءون من حسن وجهه فما ناظر إلا به بالبلى بلي

٭٭ من بني الأتراك إما نسبته ٭ نسبة عينيه إلى سحر بابل

٭٭ د وجد من تناقص وده وفرط غريم من غريم مماطل

٭٭ ع عذري فيه ضيق بجفنه ويوهي قوى صبري بحسن الشمائل

٭٭ ي الورى بالبدن في عيد نحرهم وأضحى يضحي بالكمي الحلاحل(٢)

يؤكد ياقوت في البيت قبل الأخير على حقيقتين هامتين وهما :

الأولى : أن ضيق العيون من الأشياء التي قد تعيب المرأة وتنقص من جمالها حيث قال : " يوسع عذري فيه ضيق بجفنه " ، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه عد ضيق العيون من الأشياء التي قد تحول بين زواج الرجل من المرأة .

فقد ورد في المسند الجامع عن أبي حازم عن أبي هريرة " أن رجلا أراد أن يتزوج امرأة من الأنصار ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : انظر إليها ، فإن في أعين نساء الأنصار شيئا.

(١) القلاقل : بقلة برية يشبه حبها حب السمسم ولها أكمام كأكمامها ، والظبيان تأكل تلك الحبة ، البلابل : شدة الهم ووسواس الصدر " انظر لسان العرب : ١١ / ٦٣ ، طبعة دار صادر بيروت الطبعة الأولى .
(٢) " قلائد الجمان " : ٩ / ٣٤٤ .

قال الحميدي : يعني الصغر "(١) .

وقال ابن الجوزي – رحمه الله – " فإن في عيون الأنصار شيئا يعني بعض ما لا يستحب من زرقة أو صغر أو نحو ذلك "(٢) .

الثانية : أن الأخلاق الحسنة للمرأة قد تواري بعضا من عيوبها الجسمية ، فحتى لو كانت المرأة غير بارعة الجمال فمن الممكن أن يزيد حسن خلقها من جمالها ، حيث قال : "ويوهي قوى صبري بحسن الشمائل " وهذا يؤكد أيضا على حسن خلق الحموي واهتمامه بمكارم الأخلاق .

وفي البيت الأخير معنى جميل ، وفيه تقرير بمسألة فقهية شرعية وهي التضحية بالبدن في عيد الأضحى ، وكنى بـ " عيد نحرهم " عن العيد الأضحى ، فمعنى البيت أن الناس تضحي بالبدن في عيد النحر وهذا الظبي يضحي بالكمي وهو اللابس السلاح وقيل هو الشجاع المقدم الجريء كان عليه سلاح أو لم يكن .

وقيل الكمي الذي لا يحيد عن قرنه ولا يروغ عن شيء والجمع أكماء(٣) ، فهي تضحي بالرجال الشجعان وليس أي رجل ، كما أنه شجاع وسيد في قومه ، فالحلاحل هو السيد في عشيرته الشجاع الركين في مجلسه(٤) ، وهذا يدل على شدة جمال هذه المرأة فهي تجذب الشجعان وعلية القوم .

---

(١) ورد الحديث في " صحيح مسلم " مسلم بن الحجاج ، كتاب النكاح ، باب ندب النظر إلى وجه المرأة ، رقم : ٧٤ ، ٧٥ ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، ط : دار إحياء التراث ، (١ – ٥) ، وانظر : " المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج " أبو زكريا يحيى ين شرف النووي : ٩ / ٢١٠ ، ط : دار إحياء التراث بيروت – لبنان ، الطبعة الثانية ١٣٩٢ هـ ، (١ – ١٨) .

(٢) " كشف المشكل من حديث الصحيحين " ابن الجوزي : ١ / ١٠٣٦ ، تحقيق : علي حسين البواب ، الناشر / دار الوطن - الرياض - ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م عدد الأجزاء (١ - ٤) .
وانظر " مجمع الزوائد ومنبع الفوائد " للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي بتحرير الحافظين الجليلين : العراقي وابن حجر : ٤ / ٣٢٥ ، طبعة دار الفكر- بيروت ، طبعة ١٤١٢ هـ ، ١٩٩٢م ، حديث رقم : ٧٤٨٦ .

(٣) انظر لسان العرب لابن منظور : ١٥ / ٢٣١ .

(٤) المصدر السابق : ١١ / ١٦٣ .

والقصيدة متوسطة النظم في مجملها .

*** وفي قصيدة أخرى يعقد ياقوت مقارنة بين محبوبته وبين البدر، يقول :**

"للعة البدر إلا أنه بشر ... لو لم يكن بشرا ما راق معناه

قد شانه في وجهه كلف ... وجل حبي عن عيب وحاشاه

أما قلبه قد قد من حجر ... فقلت ذاك به قد تم معناه

ما بت طول الليل مرتقبا ... أرعى النجوم سقيم القلب لولاه"(١)

فحبيبته طلعتها كالبدر، إلا أنها بشر، ولولا كونها من بني البشر ما حلا وجمل معناها ، وتتميز محبوبته عن القمر بنقاء وجهها وخلوه من العيوب ، فالقمر قد عابه وجود كلف فيه يقصد الجبال والصخور التي نراها عندما ننظر للقمر، أما هي فلا .

ولو قالوا له : إن قلبها صنع من الحجر رد عليهم قائلا أنها بتلك القسوة التي في قلبها وكون قلبها صنع من الحجر يعني أنها فعلا كالبدر، وبهذا يتم الشبه بينها وبين البدر، كما أنه لولا تلك القسوة التي في قلبها لما ظل طوال الليل يرعى النجوم وقلبه سقيم مريض بسبب بعدها وقسوتها عليه .

القصيدة معناها جيد ، ألفاظها منتقاة بعناية شديدة ، أفكارها مترابطة .

*****

الشكوى والنصيحة :

من الأغراض التي حظت بحظ وافر بين مقطعات ياقوت ذلك الغرض – الشكوى والنصيحة – وذلك لأن صاحبنا ظل طيلة حياته يعاني من صروف الدهر وتقلباته عليه منذ أن كان صغيرا ، إلى أن اقتربت وفاته ، ومن أفضل مقطوعاته في هذا المضمار تلك

(١) ابن الشعار : ٩ : ٣٤٦ – ٣٤٧ .

المقطوعة التي كتبها في رسالته للقفطي الوزير والتي كتب فيها أبياتا فيها شكوى من الزمن يقول :

(من الطويل)

ذكر لي مذ شبت دهري وأصبحت ... معارفه عندي من النكرات
ذكرتها النفس حنت صبابة ... وجادت شؤون العين بالعبرات
أن أتى دهر يحسن ما مضى ... ويوسعني تذكاره حسرات
ف ولما يبق من كأس مشربي ... سوى جزع في قعره كدرات
إناء صفوه في ابتدائه ... وفي القعر مزجا حمأة وقذاة "(١)

يتضح في تلك الأبيات غضب ياقوت مما يفعله معه زمانه ، فقد نقده عندما تنكر له وخلف لديه ذكريات أليمة تجعله يذرف الدمع ، وحتى عندما تحسن زمانه معه لا يزال ناقما عليه وعلى أفعاله معه ، ويتعجب من تحسنه معه في آخر عمره ، وكان يتمنى لو أن ذاك كان وهو شاب في ريعانه ، ويطلع بتشبيه بليغ ، فشبه حاله وحال الزمان معه كحال الكأس التي دائما ما نجد في قعرها كل ما به كدر ، ويقول ، إن الصفو يكون في الابتداء والقذى تكون في النهاية ، وكأنه يستنكر هذا التحسن الذي جاء متأخرا .

وله مقطوعة أخرى يشتكي فيها ممن يعد ويخلف ، وينصحه بعدم الوقوع في ذلك مرة أخرى ، وهذه المقطوعة توارد خاطر الحموي مع خاطر جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي فأبيات جعفر هي :

(من الرمل)

" أيها القرم الذي أعوزنا فيه النديد

(١) " إنباه الرواة " القفطي : ٤ / ٩٢ .

وأعانته على المجد مساع وجـدود

عجل النجح فإن المطل بالوعد وعيـد

قال يـاقوت في معجـم الأدبـاء : هذا معنى عن لي قبل أن أقف على هذه الأبيات وكنت أعجب كيف فات الأوائل اشتماله على مطابقة التجنيس وحسن المعنى حتى وقفت على ما ههنا فعلمت أن أكثر ما ينسب إلى السرقات للشعراء إنما هو توارد خواطر ووقوع حافر على حافر. وأما أبياتي فهي :

(من البسيط)

بذ من يمشي على قـدم علمـا وحلمـا وآبـاء وأجـدادا

اك إلـى وعـد تـصيره بـ لف والمطل والتسويف إيعـادا

بوعـد ثـم تخلفـه فيثمر الـود بعـد المطـل أحقـادا

عد بذر ولطف القول منبتـه ي يجدي إذا لم يلق حصادا"(١)

وعلق الصفدي على أبيات ياقوت وقارنها بأبيات جعفر ، يقول :

" قلت : قول الأول أحسن من قول ياقوت فإن الوعد والوعيد أقرب إلى الجناس من الوعد والإيعاد مع رشاقة نظم الموصلي "(٢) .

صاحبنا يشتكي ممن يخلف الوعد ، وينصح بعدم الوقوع في براثن إخلاف الوعد لما يجلبه الإخلاف من الضغائن بين الناس .

أصاب الصفدي في بعض قوله وأخطأ في بعض ، فقد أصاب في أن الوعد والوعيد أقرب إلى الجناس من الوعد والإيعاد ، أما قوله المطلق باستحسان قول الأول عن قول

(١) " معجم الأدباء " : ٢ / ٧٩٧ – ٧٩٨ ، ترجمة : ٢٨٨ ، ابن الشعار : ٩ / ٣٤٦ .
(٢) " الوافي بالوفيات " الصفدي : ١١ / ١٠٨ ، ترجمة : ٢٨٦٠ .

obeikandl.com

ياقوت فهذا ما يجانب الصواب ، فعلى الرغم من جودة نظم جعفر هذا إلا أن ياقوتا قد فاقه بأشياء ؛ فصاحبنا قد نظم لنا مراحل إخلاف الوعد ، فبدأها بإبرام الوعد ثم إخلافه فالمطل بالوعد ، فالتسويف ، وتلك هي مراحل إخلاف الوعد ، وهذا ما افتقره قول جعفر.

وقول ياقوت فيه النصح بعدم المطل بالوعد ، بل بعدم إبرام الوعود قبل التأكد من الوفاء بها وذكر السبب وهو أن المطل يؤدي إلى الضغائن والأحقاد .

والبيت الأخير فيه من حسن النظم وجماله ما يضاهي كبار الشعراء معنى ولفظا ففيه استعارة جميلة حيث شبه الوعد بالبذرة التي تنمو في منبتها وهو لطف القول – وهنا ترشيح للاستعارة – ، ولن تنمو تلك البذرة وتأتي بجدوى دون أن تلقى الحصاد يعني الوفاء بالوعد .

وفي طيات كلام ياقوت تعرض لقضية أدبية من أهم قضايا النقد الأدبي ، وهي قضية السرقات الشعرية ، يقول : " فعلمت أن أكثر ما ينسب إلى السرقات للشعراء إنما هو توارد خواطر ووقوع حافر على حافر " ، ولعل ياقوتا قد جانبه الصواب هو الآخر وليست هذه هي المرة الوحيدة التي تعرض فيها صاحبنا لمسألة السرقات الشعرية مقرا بأنها قد تكون توارد خواطر لا أكثر ، يقول :

" قال مؤلف الكتاب : وكنت في سنة سبع وستمائة قد توجهت إلى الشام وفي صحبتي كتب من كتب العلم أتجر فيها ، وكان في جملتها " كتاب صور الأقاليم " للبلخي نسخة رائقة مليحة الخط والتصوير ، فقلت في نفسي : لو كانت هذه النسخة لمن يجتدي بها بعض الملوك ويكتب معها هذه الأبيات (وقلت ارتجالا) لكان حسنا والأبيات في معنى أبيات قابوس ، ولم أكن شهد الله وقعت عليها ولا سمعتها وهي

(من الطويل)

رأيت الدهر جـار ولـم أجـد ... ن الناس من يعدي على الدهر عـدواكا
كبت الفلا يحدو بي الأمـل الـذي ... يدنـي على بعد التنـائف مثواكـا
، بـأن أهـدي إليـك هديـة ... فلم أر ما يهديـه مثلـي لـشرواكا
ئتك بالأرضـين جمعـا تفاؤلـا ... لعلمي بأن الفـال رائـد عقباكـا
هذه واسـتخدم الفلـك الـذي ... راه إلهي كي يـدور ببغياكـا"(١)

وقد اعترف ياقوت في ترجمته لقابوس هذا بمسألة السرقات الشعرية وذكر أخذ قابوس من كل من أبي تمام وابن الرومي ، يقول بعد أن ذكر أبياتا لقابوس :

" أما البيت الثاني فأخذه من قول ابن الرومي :

(من الكامل)

علا قدر الوضـيع بـه ... وغدا الشريف يحطـه شـرفه
ر يرسب فيـه لؤلـؤه ... سفلا ويعلو فوقـه جيفـه

وقوله " في السماء أنجم " مأخوذ من قول أبي تمام :

(من البسيط)

الرياح إذا ما أعـصفت قـصفت ... عيـدان نخـل ولا يعبـأن بالرتـم
، نعش ونعش لا كـسوف لهـا ... الشمس والبدر منها الدهر في الرقم "(٢)

(١) معجم الأدباء : ٥ / ٢١٨٤ – ٢١٨٥ ، ترجمة : ٨٩٩ .
(٢)"معجم الأدباء": ٥ / ٢١٨٤، وانظر ديوان أبي تمام: ٣ / ٢٨٠، تحقيق: محمد عبده عزام ، طبعة : دار المعارف ، د . ت .

أما أبيات قابوس فهي :

" قل للذي بصروف الدهر عيرنا هل عاند الدهر إلا من له خطر
أما ترى البحر يطفو فوقه جيف ويستقر بأقصى قعره الدرر
فإن تكن عبثت أيدي الزمان بنا ونالنا من تأذي بؤسه ضرر
ففي السماء نجوم غير ذي عدد وليس يكسف إلا الشمس والقمر"(١)

إذن فياقوت يعترف هنا أن هناك سرقات وأخذا من السابقين ، أو من المعاصرين فلا أدري لم أنكر ياقوت هذه المسألة وأقر بأن أكثر ما ينسب إلى السرقات ما هو إلا توارد خواطر.

فتوارد الخواطر لا يكون إلا في المعاني العامة التي من الممكن أن تتوارد في أذهان العامة والخاصة وأذهان القارض للشعر والكاتب للنثر، أما أن يكون التوارد في الأفكار التي تقال في مواقف بعينها فهذا ما يطلق عليه سرقة . وخير من تناول هذه المسألة – مسألة السرقات الشعرية – ابن الأثير في كتابه المثل السائر، يقول :

" والصحيح أن باب الابتداع للمعاني مفتوح إلى يوم القيامة ، ومن الذي يحجر على الخواطر، وهي قاذفة بما لا نهاية له ؟ إلا أن من المعاني ما يتساوى الشعراء فيه ، ولا يطلق عليه اسم الابتداع لأول قبل الآخر، لأن

الخواطر تأتي به من غير حاجة إلى اتباع الآخر الأول "(٢) .

فلعل خوف ياقوت من أن يقال إنه ممن يسرق الشعر هو الذي دفعه إلى أن يقسم

(١) المصدر السابق : ٥ / ٢١٨٣ – ٢١٨٤ .
(٢) " المثل الثائر " ابن الأثير : ٣ / ٢١٩، ط : دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ، قدمه وحققه وعلق عليه: د أحمد الحوفي و د : بدوي طبانة .

أنه لم ير أبيات قابوس هذه قبل أن يكتب أبياته ، وخوف ياقوت هذا لا مجال له فالمعاني التي في المقطوعتين من المعاني المتداولة التي قد ترد في خاطر الناس ، فلا تندرج تحت السرقات الشعرية .

ولم ينكر أي من النقاد الكبار مسألة الأخذ بين الشعراء ، ولكن منهم من شجع ذلك شريطة أن يتناول التابع كلام السابق بألفاظ جديدة حتى يكاد أن يخدع أكثر من يقرأ أبياته ويوحي إليه أنه أول من تناول هذا المعنى ، إن استطاع ذلك فهذا هو الحاذق بالشعر الماهر بالنظم المسيطر على قوالب المعاني الماهر بالألفاظ .

" ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن تقدمهم، والصب على قوالب من سبقهم ، ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظا من عندهم ، ويبرزوها في معارض من تأليفهم "(١) .

" فإن الشاعر الحاذق إذا علق المعنى المختلس عدل به عن نوعه وصنفه ، وعن وزنه ونظمه ، وعن رويه وقافيته ؛ فإذا مر بالغبي الغفل وجدهما أجنبيين متباعدين ، وإذا تأملهما الفطن الذكي مر قرابة ما بينهما ، والوصلة التي تجمعهما "(٢) .

وبالعودة إلى أبيات ياقوت ومقارنتها بأبيات جعفر نجد أن ياقوتا ينطبق عليه قول ابن الأثير في أن المعنى الذي تناوله جعفر من المعاني المتداولة وليست المبتدعة ، لذا قد يصح كلام ياقوت في هذا المضمار فقط وليس في مسألة السرقات برمتها ، وقوله بأن أكثرها ما هو إلا توارد خواطر خطأ ، بل الصواب أن يقول : أكثرها أخذ وسرقة والقليل توارد خواطر .

(١) الصناعتين / أبو هلال العسكري : ١٩٦ ، تحقيق علي البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم .
(٢) " الوساطة " القاضي الجرجاني : ١٩٩ ، تحقيق علي البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم .

*وله يشتكي من نفسه ، حيث لم يكتب رسائل القطان إلى الوطواط التي عرضها عليه أبو المظفر السمعاني ، وندم أشد الندم ، وظلت نفسه متشوقة إلى تحصيل هذه الرسائل ، يقول :

" وكنت عند كوني بمرو عرض علي شيخنا فخر الدين أبو المظفر السمعاني – تغمدهما الله برحمته – جزءا يشتمل على رسائل للحسن القطان إلى الرشيد الوطواط محشوة بالسلب له والثلب تصريحا لا تعريضا ، ويلزمه الحجة في أنه نهب كتبه وسلبه نتيجة عمره ، ويستحسب الله عليه ، وضاق الزمان من تحصيلها وكتبها ، وقلت :

(من الطويل)

ـم منيـة خلفـت خلفـي وبغيـة ... ومـن حـاج نفـس حـال مـن دونهـا التـرك

ذكرتهـا الـنفس حنـت وأرزمـت ... وودت لفـرط الوجـد أدركهـا الفتـك

ـلام علـى تلـك الـديار وقدسـت ... نفـوس بمثواهـا ثـوى العلـم والنـسك

وبقيت نفسي إليها متطلعة ، وإلى مكنونها متلفتة، فظفرت برسائل الرشيد محمد بن محمد بن عبد الجليل العمري البلخي المعروف بالوطواط ، متضمنة الأجوبة عنها يدل آخرها على إضراب الحسن القطان عن تهمته، والإذعان بإبراء ساحته "(١) .

فياقوت يشتكي من نفسه ويذوق مرارة عدم كتبه لتلك الرسائل عندما عرضها عليه السمعاني ، حتى أنه تمنى لفرط وجده إلى تلك الرسائل أن تنال نفسه الفتك ، وقد ذكر دكتور الديب هذه المقطوعة وأدركها تحت غرض الوصف ، وليست هي كذلك فالدكتور الديب يقول في عرضه لتلك الأبيات :

(١) معجم الأدباء : ٣ / ٩٦٢ .

obeikandl.com

" كتب ياقوت في تقديمه لمقطوعة من الشعر يصف فيها مرو ويتشوق إليها "(١) .

ثم قال معلقا عليها بعد أن ذكرها :

" يذكر ياقوت أن تركه لمرو حال دون تحقيق أمانيه وأحلامه ومن فرط وجده وغرامه بهذا البلد تمنى أن يموت به وتلقى نفسه الحتف على أرضه ، ثم يبعث بسلامه إلى هذا الموضع وإلى من دفن به من أهل العلم والنسك "(٢) .

نعم هو يبعث بسلامه إلى تلك الديار ، وإلى أهل تلك الديار من أهل العلم الذين دفنوا بأرضها ، ولكن تحسره وندمه هنا وتمنيه الموت ليس لأنه يحب تلك الديار ، ولكن لما فاته كتبه في تلك الديار وهي رسائل القطان التي ذكرها في مناسبة كتابته لتلك الأبيات وإن كان الأمر كما قال دكتور الديب في بحثه من أن ندمه وفرط وجده على تركه لتلك الديار ، لكان من الأحرى أن يدرج تلك الأبيات تحت غرض الشكوى وليس تحت غرض الوصف .

ونقل دكتور الديب في هامشه كلام محقق المعجم – طبعة دار إحياء التراث – حيث قال المحقق :

" لو قال : لو نالها الفتك لكان أسلم "(٣) .

نقل ذلك ولم يعلق عليه ، وفي الحقيقة قول ياقوت أبلغ مما أراده المحقق منه ، فلو قال : " لو نالها الفتك " لم يكن هناك تقرير ، أما قوله " أدركها الفتك " ففيه تقرير يدل على شدة حزنه من نفسه لعدم كتبه لتلك الرسائل ، إذن فقول ياقوت أبلغ .

---

(١) ياقوت الحموي أديبا وناقدا : ٣٤٤ .
(٢) المصدر السابق : ٣٤٥ .
(٣) المصدر السابق : ٣٤٥ .

وله العديد من المقطوعات في هذا الغرض .

الهجاء :

لياقوت مقطوعة واحدة في الهجاء – حسب ما تيسر لنا من شعره – تلك التي هجا فيها أرتخشميثن مدينة من أعمال خوارزم لاقى فيها ياقوت من الأهوال الجسام والنوائب العظام كثيرا ، فهي مدينة شديدة البرد ، وأهلها فاقت مساوؤهم محاسنهم لذا هجاها وهجا أهلها ، يقول بعد أن قص لنا مناسبة كتابته لتلك الأبيات :

(من الوافر)

" نا رخشميثن إذ حللنا ... بساحتها لشدة ما لقينا
أ اها ونحن ذوو يسار ... عدنا للشقاوة مفلسينا
أ بردا لقيت بلا سلام ... وكم ذلا وخسرانا مبينا
أ ، النار ترعد فيه بردا ... وشمس الأفق تحذر أن تبينا
ا ا تقطر العينان منه ... ووحلا يعجز الفيل المتينا
ا نعام أهلا في كلام ... وفي سمت وأفعالا ودينا
ا اطبتهم قالوا بفسا ... وكم من غصة قد جرعونا
أ جنا أيا رباه منها ... فإن عدنا فإنا ظالمونا
ا ن الشأن في هذا ولكن ... عجيب أن نجونا سالمينا
ولست بيائس والله أرجو ... عيد العسر من يسر يلينا " (١)

تلك هي المرة الوحيدة التي تجرأ فيها ياقوت وتناول أحدا بالهجاء ، ولكنه عاد لخوفه مرة أخرى فاستفاق ، فقال عقب تلك الأبيات:

(١) معجم البلدان : ١ / ١٤١ - ١٤٢ ، ط : دار الفكر / بيروت (١ / ٥) .

" قلت فأما ذمي لذلك البلد وأهله إنما كان نفثة مصدور اقتضاها ذلك الحادث المذكور، وإلا فالبلد وأهله بالمدح أولى ، وبالتقريظ أحق وأحرى "(١).

وقد استقبح الحموي تلك الأبيات التي كتبها ، يقول :

" قال هذه الأبيات وسطرها على ركاكتها وغثاثتها ، لأن الخاطر لصداه ، لم يسمح بغيرها ....."(٢).

وقد قام الدكتور الديب بنقد قول ياقوت : " ووحلا يعجز الفيل المتينا " بقول في الهامش : " الفيل المتين : تعبير ركيك وكان يمكنه أن يقول : " الفيل البدينا " "(٣)

ولست أوافق الدكتور سيد الديب في رأيه هذا ، لأن قول ياقوت أبلغ من قوله فالفيل المتين يعني الفيل القوي ، أما البدين فهو الفيل المتلئ الجسم وليس بالضرورة أن يكون البدين متينا ، وياقوت هنا يريد أن يصور مدى كثرة الوحل في تلك المدينة ، فبالغ قائلا أن الفيل القوي البنية لا يستطيع أن يسير في هذا الوحل على الرغم من قوته ، أما لو قال الفيل البدينا فمن الطبيعي أن الفيل البدين لا يستطيع أن يسير حتى ولو كان الوحل غير كثير، بل وإن لم يوجد وحل ، فهو لن يستطيع السير بجسمه البدين هذا .

وأشار دكتور الديب أيضا إلى معاني الكلمات في تلك القصيدة ، وقال في الهامش : " أن كلمة " بفسا " كلمة غير معروفة ، مع أنها معروفة وتناولتها معظم كتب اللغة يقول ابن منظور: " فسا الفسو: معروف ، والجمع الفساء ، وفسا فسوة واحدة وفسا يفسو فسوا وفساء، والاسم الفساء ، بالمد ؛ وأنشد ابن بري :

إذا تعشوا بصلا وخلا يأتوا يسلون الفساء سلا

---

(١) " معجم البلدان " : ١ / ١٤٢ .
(٢) المصدر السابق : ١ / ١٤٢ .
(٣) " ياقوت الحموي أديبا وناقدا " دكتور الديب : ٣٣٥ في الهامش .

ورجل فساء وفسو : كثير الفسو ، قال ثعلب : قيل لامرأة أي الرجال أبغض إليك ؟ قالت : العثن ، النزاء ، القصير ، الفساء ، الذي يضحك في بيت جاره وإذا أوى بيته وجم الشديد الحمل "(١) .

وقال الأزهري : " ويقال للخنفساء : الفساءة لنتنها ، وفسا فسوة واحدة ، والعرب تقول : أفسى من الظربان ، وهي دابة تجيء إلى جحر الضب فتضع قب استها عند فم الجحر ، فلا تزال تفسو حتى تستخرجه ، وتصغير الفسوة فسية "(٢) .

فمعنى قول ياقوت إذن " **إذا خاطبتهم قالوا بفسا** " أن هؤلاء الناس أهل هذه المدينة لا يحسنون الكلام ، فكلامهم يشبه الفساء في أنه قد يجعلك تضجر وتنفر منهم .

هذه القصيدة على ركاكتها كما يقول ياقوت إلا أنها ترسم صورة واضحة لبلد من البلاد ، وتصور حال أهل هذه البلد ، وسوء حال البلد وأهلها دفعه إلى الدعاء بأن يخرجه الله سالما منها ، وأنه سيكون ظالما لنفسه إن عاد إليها مرة أخرى .

*****

الفخر :

من الأغراض التي لم نجد شاعرا من الشعراء يخلو شعره منها ، فكل إنسان يريد أن يفتخر بنفسه أو بعائلته ، أو بقبيلته ، أو بوطنه ، أو بأي شيء يدعو للفخر ، وكذا ياقوت إلا أنه في الحقيقة لم يجد ما يفتخر به فافتقرت مقطوعاته هذا الغرض .

فلم نجد له غير مقطوعة واحدة في هذا اللون ، حيث افتخر بكتابه معجم الأدباء موضوع البحث ، وشبه ترنحه لمن يقرأه بترنيح ابنة الكرم لشرابها أي الخمر للمخمورين وقد بالغ ياقوت في تلك الأبيات باعتداده بكتابه حتى أنه لو استطاع أن يجعل غلافه من

(١) انظر لسان العرب لابن منظور : ١٥ / ١٥٤ ، مادة " فسا " .
(٢) تهذيب اللغة للأزهري مادة " فسا " .

جلده وصندوقه من عظامه لفعل ، وهذه المبالغة مقبولة لعلو قدر هذا المعجم بالفعل ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى المجهود الكبير الذي بذله في كتابته والذي استمر معه سنين طويلة لذا فياقوت معذور في أن يبالغ ، ولو بالغ أكثر من ذلك لقبلناه منه .

يقول ياقوت كعادته التي اعتادها في ذكر مناسبة كتابته للأبيات الشعرية :

" ومع ما تقدم من اعتذارنا ، ومر من تنصلنا واستغفارنا ، فقد رآني جماعة من أهل العصر وقد نظمت لآلئ هذا الكتاب ، وأبرزته في أبهى من الحلي على ترائب الكعاب فاستحسنوه والتمسوه لينسخوه ، فوجدت في نفسي شحا عليهم ، وبخلا بعطف جيده إليهم لأنه مني بمنزلة الروح من جسد الجبان ، والسوداوين من العين والجنان ، مع كوني بغير راض لنفسي بذلك المنع ، ولا حامد لها على ذلك الصنع ، لكنها طبيعة عليها جبلت وسجية إليها جبرت ، حتى قلت فيه مع اعترافي بقلة بضاعتي في الشعر ، وعلمي بركاكة نظمي والنثر :

(من الطويل)

فكم قد حوى من فضل قول محبر ... ومن نثر مصقاع ومن نظم ذي فهم
من خبر حلو ظريف جمعته ... على قدم الأيام للعرب والعجم
يرنح أعطافي إذا ما قرأته ... كما رنحت شرابها ابنة الكرم
ولو أنني أنصفته في محبتي ... لجلدته جلدي وصندقته عظمي
يز على فضلي بأن لا أطيعه ... على بذله للطائفين على العلم
أني أستطيع من فرط حبه ... لما زال من كفي ولا غاب عن كمي (١)"

(١) معجم الأدباء : ١ / ١٢ – ١٣ .

وقد استشهد الحموي ببعض أبيات لمن سبقوه حين بخلوا بكتبهم على طلاب العلم كأبي عبد الله المقرئ ، وقد استشهد ياقوت بغيره حتى لا يستطيع أصحاب النفوس الضعيفة أن ينقدوه في فعلته ، فأراد أن يبين لهم أنه ليس أول من ابتدع ذلك ، بل سبقه إلى ذلك خلق كثير. وحقيقة لم يكن الحموي فقط هو من أثنى على معجم الأدباء ، فقد أورد الصفدي في كتابه أبياتا للوزير العلقمي مدح فيها كتاب معجم الأدباء يقول :

" وله النظم المتوسط كتب على كتاب معجم الأدباء لياقوت الحموي

(الطويل)

سماء أنارت للفضائل أنجما ... وبحر أثار الدر فذا وتوأما

جلا أوجه الآداب زهرا مضيئة ... فثقف عود العلم حتى تقوما

أثار خفيات الفضائل فانثنى ... سناها مضيئا بعد أن كان مظلما

وألف من بعد التفرق شملها ... على أن فيه حسنها متقسما

تضمن أسماء ينير بها الدجى ... ويهدي بها الغاوي ويجلى بها العمى (١)

المدح :

لياقوت أربع مقطوعات في المديح واحدة يمدح فيها صديقه كمال الدين بن العديم كتبها ياقوت في معجم الأدباء يقول :

" دخلت إلى كمال الدين المذكور يوما فقال لي : ألا ترى أنا في السنة الحادية والثلاثين من عمري وقد وجدت في لحيتي شعرات بيضا ، فقلت أنا فيه :

(من الطويل)

هنيئا كمال الدين فضلا حبيته ... ونعماء لم يخصص بها أحد قبل

(١) الوافي بالوفيات " الصفدي : ١ / ٢١٧ ، ترجمة رقم : ١٩١ .

لداتك في شغل بداعية الصبا وأنت بتحصيل المعالي لك الشغل
بلغت لعشر من سنينك رتبة من المجد لا يسطيعها الكامل الكهل
ولما أتاك الحكم والفهم ناشئا أشابك طفلا كي يتم لك الفضل"(١)

يهنئ ياقوت صديقه ابن العديم على شيبته التي ظهرت في وقت مبكر، وما ذاك إلا دليلا على علو منزلته وعلمه، فكبر العمر دليل على الخبرة والفهم، فمن في مثل سنه مازالوا شاغلين أنفسهم بما يشغل الصبي، أما هو فقد شغل نفسه بالمعالي والأمور الهامة ويبالغ في مدحه له فيقول: أنك قد بلغت وأنت ابن العاشرة ما يبلغه الكامل الكهل والكهل هو من فوق الثلاثين، والكهل هو الحليم العاقل(٢).

وقد علق د: الديب على قول ياقوت " بلغت لعشر من سنينك رتبة " في الهامش قائلا: " الصواب: " سنيك " ولكنه أجراه على لغة من يعربه بالحركان على النون "(٣).

ويؤكد ياقوت على حقيقة أن الكهل هو الحكيم العاقل في آخر بيت، قائلا لصاحبه:

ولما أتاك الحكم والفهم ناشئا أشابك طفلا كي يتم لك الفضل

أي أن تلك الشيبة التي برأسك ما هي إلا دليل على انك صرت حكيما وعاقلاً وفهما.

▫ وله قصيدة رائعة يمدح فيها بعض أصدقائه، يقول فيها:

---

(١) معجم الأدباء: ٥ / ٢٠٩١، ت: ٨٦١.
(٢) انظر لسان العرب: ١١ / ٦٠٠، مادة كهل.
(٣) " ياقوت الحموي أديبا وناقدا " د. الديب: ٣٣٨ في الهامش، وقد ورد عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه أثبت النون في سنيك فوردت " سنينك " وفي رواية أخرى من نفس الحديث وردت " سنيك "، يقول النبي عليه السلام: "و اجعلها سنين كسني يوسف " وفي رواية " واجعلها سنين كسنين يوسف " متفق عليه، وأخرجه التبريزي – رحمه الله – في مشكاة المصابيح: ١ / ٢٨٦، رقم ١٢٨٨ باب القنوت، الفصل الأول، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، ط: المكتب الإسلامي بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة ١٩٨٥م في ثلاثة أجزاء، إذن فكلتا الكلمتين صواب، ولكن الأشهر والأصح سنيك

(من السريع)

" دك الداعي أتـــى قاصـــدا إلـــى قـــضاء الفـــرض والنفـــل
خدمة يخدمه كـــل مـــن يمـــشي بحـــزن الأرض والـــسهل
تقبيل يديـــك الـــتي بهـــا عرفنـــا صـــورة العـــدل
ني بعد الثنـــا والدعـــا ـــستحقبا مـــن فـــضلك الجـــزل
موطن التوحيـد مكنونـــه طـــورا وطـــورا موضـــع الكحـــل
ـال مـــن دونكـــم أســـود فـــي لونـــه والقـــول والفعـــل
فها أنا مـــذ ذاك فـــي حيـــرة مدلـــه التمييـــز والعقـــل
غيظا يميت القلـــب تذكـــاره مـــن فعـــل هـــذا الأســـود النـــذل
لم يحجبوا وفد العطايـا فلـــم يحجب مـــن يرغـــب فـــي الفـــضل
فظلت فيـــه مفكـــرا واجمـــا حتى انجلى عنـــي عمـــى الجهـــل
لمـــا بـــدا لـــي أن أوصافـــه مـــأخوذة مـــن صـــفة القفـــل
وقال لي القلـــب إذا كنـــت مـــن أهـــل الحجـــى والفهـــم والنبـــل
فـــلا تـــرع لابـــد للمجتـــني شهد العلى من إبـــر النحـــل"(١)

سار ياقوت في هذه القصيدة على نهج بني عصره من الشعراء والأدباء ، حيث انتشر في هذا العصر ذكر الأماكن الدينية في الشعر ، كما انتشر الاقتباس أيضا ، وقد ذكر ياقوت مكة المكرمة وكنى عنها قائلا : " في موطن التوحيد " أي مكة ، والبيت الأخير تضمين لقول المتنبي :

" تريدين إدراك المعالي رخيصة ولابد دون الشهد من إبر النحل "(٢)

(١) " قلائد الجمان " ابن الشعار : ٩ / ٣٤٤- ٣٤٥ .
(٢) " شرح ديوان المتنبي " عبد الرحمن البرقوقي : ٤ / ٤ ، ط : دار الكتاب العربي بيروت – لبنان (١ – ٤) .

* وله في أحد أصدقائه يمدحه :

(من الطويل)

"تباعدتم لا أبعد الله داركم ... وأوحشتم لا أوحش الله منكم

لئن كنتم عن أرض مصر رحلتم ... فإنكم في مهجتي قد نزلتم

ا على رغمي لدار حللتم ... وبؤسا لربع عن مغانيه بنتم

فلو قيل لي ماذا تمنى من الدنا ... كان مناي أنتم لا عدمتم"(١)

يناجي ياقوت صديقه الذي غاب عنه ورحل عن أرض مصر قائلا أنه قد توحشه وأنه يهنئ تلك البلد التي سافر إليها يقول ذلك وهو مرغم حزين ، وينعي حظ تلك البلد التي سافر منها ، وأنه لو قال له قائل ماذا تتمنى من هذه الدنيا لقال له أن غاية مناه ألا يعدم صديقه .

ياقوت الحموي هذا الأديب البارع والمؤرخ الماهر الحاذق ، والخطاط المثابر والرحالة المحب للترحال ، اللغوي المتميز ، لم يقف عند هذا الحد ، بل ترك لنا مقطعات شعرية تدلنا على شخصيته الشاعرة وحسه المرهف ، وتؤرخ لنا بعض الوقائع التي مر بها وتثبت لنا بعض البلاد التي زارها ، وإن كانت تلك المقطعات لم ترتق به إلى حد قولنا إنه شاعر ، لكنه أديب يقول شعرا ، وهو وإن كان لم يكتب في كل أغراض الشعر إلا أنه وصف لنا تجاربه الشخصية بأبيات مقفاة موزونة .

وهذا الفصل يعد ملخصا لحياة ياقوت الحموي ، وكذلك ببليوجرافيا لكل من أطلق عليهم اسم ياقوت ، وتناول الفصل ميلاد ياقوت وما وقع فيه من اختلاف واتفاق وتناول الرد على ما قاله محقق المعجم دكتور إحسان حول تاريخ ميلاده ، وتناول الرد على من زعم أن ياقوت كان من المتعصبين ضد علي وأنه يقول بقول الخوارج ، كما تناول شعره وما خلفه لنا من مقطوعات شعرية .

---

(١) ابن الشعار (٩ / ٣٤٧ – ٣٤٨) .